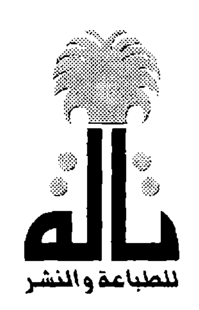
الصادق النيهوم

من مكة إلى هنا



من مكة إلى هنا

الصادق النيهوم



من مكة إلى هنا

من مكة إلى هنا

الصادق النيهوم



طرابلس

ISBN 9959-31-002-7 ردمك

المحلي 2000/4967

الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب

دار الكتب الوطنية ــ بنغازي

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى



ص. ب. 13/5752 ر. ب. 1103 2070

بيروت - لبنان

Email: arabdiffusion@hotmail.com

الطبعة الثانية 2001

عندما افتتح المطعم الايطالي في قرية الصيادين الواقعة على طرف خليج سوسة، لم يزره أحد من سكان القرية سوى الزنجي مسعود الطبال الذي قيل عنه إنه يأكل لحم الخنزير..

وقد جاء الزنجي قبيل المساء حاملاً مجدافيه فوق كتفه وأسندهما بجانبه على الجدار ثم طلب لنفسه زجاجة نبيذ وشريحتين من اللحم وشرع يحشرهما في جرابه الجلدي.. فيما كانت صاحبة المطعم العجوز تراقبه بفضول من وراء حاجز البار.

وكان المطعم قد استقبل بعض الرواد الذين قدموا بعرباتهم من الطريق العام، ولكنهم كانوا قد رحلوا جميعاً منذ العصر لكي يشاهدوا استقبال الوالي الجديد في مدينة بنغازي، ولم يبق منهم أحد سوى مزارع ايطالي ذي رجل خشبية كان قد فقد وعيه تحت وطأة النبيذ الرديء وطفق يطارد صاحبة المطعم لكي تذهب معه إلى المزرعة.. وعندما التفت صدفة ورأى الزنجي جاثياً على ركبتيه بجانب جرابه الجلدي.. هزَّ كتفيه وقال بصوت عال:

ـ سوسة قرية الزنوج.. أنا قلت لك ذلك يا يسوع المسيح وقلت

لك إنه من الأفضل أن نبقى في روما. ولكنك لم تصدقني.. إنه لم يكن بوسعك أن تصدق مزارعاً أعرج مثلي، فانظر بنفسك الآن.. هذا زنجي كامل الهيئة يحمل جمجمة في جرابه..

وضحكت صاحبة المطعم.. ثم لوت شفتيها وقالت بازدراء:

ـ من الأفضل لنا أن نبقى في روما.. ما الذي يدعوك إلى الكذب الآن؟.. إن يسوع المسيح يعرف أنك من سيسيليا.. يا إلهي!.. إنه يستطيع أن يشم رائحتك ويعرف أنك من سيسيليا.. وقد كنت تملك ثلاثة خنازير في حوزتك..

ومدّ المزارع رجله الخشبية وقال بملل:

ـ أنا من روما.. إنني لم أر سيسيليا سوى مرة واحدة.. هذا وجه الحق أيتها المرابية.. اسألي هذا الزنجي الدموي.. إنه يعرفني منذ زمن بعيد، ويعرف أنني من روما..

ونهض الزنجي واقفاً ووضع جرابه فوق كتفه واحتضن مجدافيه ثم قال بهدوء:

ـ أنا لا أعرفك.. إنك مجرد عجوز خشبي.. ما الذي يدعوك لأن تقول للصيادين إنني عرضت عشرين فرنكاً ثمناً لمحرك القديم؟.. هل تعتقد أنك تستطيع أن تخدعهم بهذه الأكذوبة؟.. إن ذلك المحرك لا يساوي أكثر من عشرة فرنكات وسوف يحتاج إلى عشرة فرنكات أخرى لكي يتم إصلاحه..

وقاطعه المزارع قائلاً بملل متزايد:

ـ دعنا من المحرك الآن.. إنه يساوي عشرين فرنكاً، هذا وجه الحق.. ولكن دعنا من المحرك الآن.. أنا أريد أن أتحدث مع السنيورة توريستا وأطمع أن أقنعها لكي تقضي معي الليلة في المزرعة.. يا

يسوع المسيح لماذا يحمل هذا الزنجي مجدافيه فوق كتفه ويقرعني هنا؟.

وقال الزنجي مرة أخرى:

ـ المحرك لا يساوي أكثر من عشرة فرنكات، وأنا أحتاج إليه.. إنني سأعترف لك بأنني أحتاج إليه أكثر من أي صياد آخر في المنطقة لأنني لا أستطيع أن أعتمد على مجدافي في الوصول إلى الجزيرة خلال أيام القبلي..

ورفع المزارع رأسه فجأة ونظر إلى الزنجي في ريبة.. ثم التفت إلى صاحبة المطعم وقال لها بعد برهة:

ـ أنا لا أريده أن يصل إلى الجزيرة.. هذا وجه الحق.. لقد سمعت القصة كلها، وسمعت أنك سحرت هذا الزنجي الدموي لكي يحضر لك حاجتك من لحم السلاحف.. أجل إن الأمر لا يخصني.. ولكني أيضاً لن أعطيه محركي لكي يكسر عنقه في مطاردة السلاحف.

ومنحته صاحبة المطعم ابتسامة باردة فهز رأسه مؤكداً ثم قال مرة أخرى:

ـ إنني لن أعطيه محركي لكي يكسر عنقه على صخور الجزيرة هذا وجه الحق.. اسمعي.. ماذا أردت أن أقول لك؟.. أجل إن زبائنك يستطيعون أيضاً أن يأكلوا لحم البقر.. يا إلهي.. إن البقر في الواقع خلقه الله لكي يأكله الناس في المطاعم أما سلاحف البحر فإنه خلقها لكي تبقى في كهوف الجزيرة..

ووضع الزنجي جرابه على الأرض وسأله بدهشة:

ـ من أخبرك عن السلاحف؟.. اسمع.. هل جاءوا إليك في

المزرعة وطلبوا منك ألا تبيع لي المحرك.. أجل هذا ما حدث أليس كذلك؟..

وأومأ له المزارع بيده، ثم قال بصوت عال:

ـ لم يأتني أحد في المزرعة.. إنني لم أقل لك شيئاً من ذلك، ولكن القرية بأسرها تعرف أنك تزمع أن تزود مطعم هذه المرابية بلحم سلاحف البحر.. يا إلهي ماذا يستطيع زنجي واحد أن يفعل من أجل ثلاثة فرنكات؟.

وعاد الزنجي فالتقط جرابه ثم فتح الباب وقال بصوت عال:

ـ لقد جاءوا إليك في المزرعة.. أنا أعرف ذلك.. وأعرف أن بعض الصيادين البلهاء بدأوا يتصرفون الآن كأن سلاحف البحر أمهاتهم الائي أنجبنهم من بطونهن، اتفو.. سلاحف البحر أمهات الصيادين في سوسة، وفي كل مكان..

ثم صفق الزنجي الباب وراءه وجر مجدافيه فوق أرضية الشرفة وانطلق في اتجاه الخليج عبر الساحة الرملية المليئة بالطحالب.. وعندما عثرت رجله فجأة ترنح بعنف وقال مرة أخرى:

ـ سلاحف البحر أمهات الصيادين، والكلاب أيضاً أمهاتهم.. أنا أحتاج إلى محرك الرومي لكي أصل إلى الجزيرة في أيام القبلي، ولكنني إذا لم أستطع أن أحصل عليه فسوف أصل إلى الجزيرة بمجدافي.. أجل، وسوف أطارد أمهات الصيادين وأحضرهن إلى مطعم الرومية.. فالسلاحف خلقها الله ووضعها بين صخور الجزيرة لكي يذهب الصياد لإحضارها مقلوبة على ظهورها..

وكان الزنجي يتحدث بصوت عال.. وكان يتحرك بيسر مطلق بين الطحالب المتناثرة، وعندما اجتاز الرف الصخري الممتد على مدخل الخليج خلع حذاءه وتركه يتدلى على كتفه ثم انطلق

يخوض في المياه الضحلة حتى وصل إلى قاربه المربوط وراء المدخل مباشرة ووضع جرابه ومجدافيه وقال فجأة:

ـ الفقهاء أعداء الصيادين، أعني أستغفر الله إذا كان ذلك ذنباً حقيقياً، ولكن الفقي يقول لك إن سلاحف البحر حوريات مسحورة لا بد أنه يناصبك العداء.. أجل.. أنا عبد جاهل لا يجوز أن يخوض في أقوال العلماء، لكن السلحفاة ليست حورية مسحورة.. إنها مجرد «فكرونة» كبيرة الحجم وقبيحة إلى حد لا يطاق، وقد قتلت منها بنفسي ما يربو على المائة دون أن يسخطني الله إلى حجر!..

ثم تذكر الزنجي شيئاً ما، وأطرق برأسه واجماً برهة وقال بعد ذلك:

ـ أجل.. ولكن ذلك الصياد الصغير لم يكن نداً للسلاحف.. لقد كان مجرد صبي طائش، وكان عليه ألا يترك التيار يجرفه إلى المياه الضحلة.. أعني أستغفر الله من ذنبه.. ولكن مطاردة السلاحف في المياه الضحلة مجرد انتحار ولو كنت في قارب ذلك الصبي لما تركته يقترب من رف الجزيرة..

وكان الزنجي قد تذكر ما حدث في الشهر الماضي.. وكان أحد أبناء الصيادين قد خرج وحده لكي يحضر والده الذي قضى الليلة فوق الجزيرة في حراسة خيوطه المعدة لصيد كلاب البحر، وقد وجد الصبي ثلاث سلاحف طافية على وجه المياه العميقة في شرق الجزيرة وطاردها بمحركه البخاري ثم قلب إحداها على ظهرها فيما كانت تحاول أن تغوص ضد التيار.. وكان والد الصبي يراقب هذه اللعبة المفاجئة من الشاطىء المقابل، وقد خيل إليه أول الأمر أن السلحفاة تمكنت من الغوص وراء القارب ثم رآها مقلوبة على

ظهرها عبر الانعكاس الشمسي المتوهج على سطح المياه.. ورأى القارب يستدير مرة أخرى لكي يبحر بجانبها.. ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه في وهج المواشير الضوئية الحارقة، وقد عاد فوضع يده على حافة عينيه وحدَّق في الفضاء الزجاجي محتملاً ألماً حاداً ثم انطلق يجري فجأة في اتجاه اللسان البحري الممتد على طول منطقة الصخور..

كان يعرف أن الصبي قد استدار بقاربه لكي يقطر السلحفاة وراءه، وكان يريد أن يدركه قبل أن يقترب من الرف الصخري الضحل، وقد انطلق يجري بأقصى سرعته في اتجاه اللسان الممتد على بعد نصف ميل إلى الشرق ملوحاً بيديه في الهواء.. وعندما استدار عبر انحناءة اللسان نفسه توقف فجأة وصرخ بأعلى صوته:

ـ ابتعد عن الصخور.. لا تدعها تلمس الأجراف.. دعها وشأنها يا ابن الزنا..

وكان الصبي قد لاح خلال برهة قصيرة عبر انعكاس الشمس ثم اختفى مرة أخرى فيما كان صوت محركه ينمو باطراد على طول الرف الصخري وصرخ والده لآخر مرة:

ـ ابتعد عن الأجراف.. عد إلى المياه العميقة..

ثم استدار عند حافة اللسان وتوقف مصعوقاً فوق المنحدر الصخري المغمور في المياه.. وكان القارب قد بدأ يترنح فجأة حتى مال على جانبه فيما ظهرت السلحفاة وراءه وهي تجاهد لكي تستعيد توازنها بعد أن غرست عنقها في حافة الجرف الناتيء.. وانزلق القارب على جانبه تحت وطأة الضغط المفاجيء.. وأصدر المحرك أزيزاً عالياً في الهواء عندما قفز الصبي إلى الدفة محاولاً أن

يستعمل مجدافه في إبعاد القارب عن الجرف الناتىء.. وفي اللحظة التالية ترنح القارب مرة أخرى وانحشر جسد الوحش المربوط من عنقه في مروحة المحرك.. ثم انكفأ القارب فجأة وهوى الصبي على الجرف فيما كانت السلحفاة تستعيد توازنها فوقه مباشرة.. وفتح الصبي عينيه.. ورأى الكهف العظمي النتن الرائحة ينطبق على غير هدى في كل اتجاه.. ثم أحس به ينهش عنقه في لمسة خاطفة خالية من الألم.. ومدَّ يديه مغمض العينين واحتضنه في هدوء..

وعندما عاد والده في المساء كان الخبر قد انتشر في القرية بأسرها.. وكان أحد ما قد زعم أن السلحفاة حملت جثة الصبي إلى منطقة المياه العميقة وأن والده لم يستطع أن يعثر عليه، لكن الصياد الذي ظل يبحث عن الجثة طوال النهار قال بعد ذلك إن التيار جرفها إلى منطقة الكهوف.. وأنه رآها بنفسه تنزلق في اتجاه حافة الجزيرة الشرقية وسوف يصبح بوسعه أن ينتشلها في اليوم التالي عندما تتحسن الرؤية في منطقة الأعشاب..

وقد أقيم مأتم الغلام طوال الليل.. وتجمعت نساء القرية في الساحة الرملية المواجهة للخليج وأصررن على أن يقمن المأتم في العراء حتى يعثر الصيادون على الجثة.. فيما تبرع فقي القرية بالذهاب إلى الجزيرة لكي يعمل على إطلاق سراح الصبي من أسياد البحر..

وقد تذكر الزنجي فيما كان يجلس في قاربه المربوط وراء المدخل صراخ النساء في الساحة الرملية.. وتذكر كتب الفقي الجلدية الأغلفة التي حملها معه إلى الجزيرة.. ورائحة «البوكبير» المحترق في نار التفن المتيبس.. ثم قال بصوت عال:

ـ أجل لقد كانت ليلة محزنة.. وكان كل شيء يكسر القلب.. لكن السلحفاة لم تسرق جثة الصبي.. أنا رأيتها بنفسي تنزلق في اتجاه الكهوف ولمستها بيدي هذه التي سيأكلها الدود..

وعندما رفع مرساته وانطلق يجدف مبتعداً عن مدخل الخليج تذكر فجأة أنه لم يلمس جثة الصبي وقال على الفور:

ـ ماذا؟.. لكنه كان بوسعي أن ألمسها على أي حال. لقد كانت على بعد قامة واحدة مني أو قامتين.. أعني أستغفر الله إذا أخطأت في الحساب، ولكن الجثة كانت تنزلق إلى منطقة الكهوف، وكان بوسعي أن أنتشلها منذ المرة الأولى لو أنني غصت وراء منطقة الأعشاب..

وفجأة انحنى الزنجي إلى الأمام وبصق في وجه العتمة ثم قال بازدراء:

ـ لقد كنت خائفاً.. هذا وجه الحق.. أنا مجرد عبد على أي حال، وقد خفت أن ألمس جثة الصبي.

وكان الصيادون قد قضوا ثلاثة أيام كاملة في البحث عن الجثة داخل منطقة الكهوف.. وكان الفقي قد عمل طوال اليوم الأول فوق الرف الصخري الممتد على جانب اللسان، وقرأ إلى نهاية سورة السجدة ثم عاد إلى القوارب وأخبر الصيادين أن الجثة ما تزال في منطقة المياه العميقة، لكن والد الصبي أصرَّ على مواصلة البحث في الكهوف وزعم أنه رأى الجثة للمرة الثانية تقترب من الحافة على يمين الجرف الناتىء، ثم زعم اثنان من الصيادين أنهما لمحا قميص الصبي بين الأعشاب.. وعندما غاص الزنجي في المنطقة وأخرج قطعة القماش البيضاء قال له الفقي:

ـ هذا ليس قميصه.. ماذا دهاك يا مسعود؟.. إن الصبي ما يزال

في منطقة المياه العميقة وما يزال مكتوف اليدين في كهف سيدته الجريحة..

وفي اليوم التالي كانت الرياح الخريفية الباردة ما تزال تحمل إلى الجزيرة أصوات نساء القرية في المأتم المقام على اتساع الساحة الرملية..

وكان والد الصبي قد خرج بقاربه للبحث في منطقة المياه العميقة ثم عاد في المساء وسمع من الصيادين أن الزنجي مسعود الطبال رأى الجثة داخل الكهف المعشب على يمين الجرف الناتىء، وأنه لمسها بيده ولكنه لم يكن بوسعه أن ينتشلها ضد التيار.. وإذ ذاك قال والد الصبي في مرارة مفاجئة:

ـ كذب!.. هذا كله كذب.. إن الجثة ما تزال في المياه العميقة.. أنا تعبت من أكاذيب مسعود الطبال وبقية الصيادين.. دعوا ولدي وشأنه..

وخلال الليل ذبح الفقي في الساحة الرملية كبشاً أدغم محجلاً بالبياض، ثم أحرق حوافره في إناء فخاري وكتب فوق ضلوعه بالحبر المصنوع من الصوف المحترق.. ونثر الرماد على طول الحاجز الصخري وراء الخليج..

وعندما أبحر والد الصبي في اتجاه الجزيرة عند الفجر كان الفقي ما يزال يعمل وحده في طرف الحاجز.. وكانت نساء القرية قد استقبلن بعض الزائرات وجلسن للبكاء معهن فوق الساحة الرملية.. ومدَّ الزنجي يده في العتمة وأخرج زجاجة النبيذ من جرابه الجلدي، ثم قال بانكسار:

ـ أنا عبد سكير جبان.. هذا وجه الحق.. وقد رأيت الجثة داخل الكهف المعشب..

وكان الصيادون قد عثروا على الجثة عند العصر وراء منطقة الأعشاب الواقعة في طرف الحافة الشرقية.. وكان الفقي قد وصل إلى الجزيرة بعد الظهر وأعلن أن الصبي أصبح الآن مطلق السراح وأنه سينزلق مع التيار.. ثم طلب من الزنجي أن يصحبه في قاربه إلى الحافة الشرقية.. لكن الزنجي أصرَّ على الغوص في منطقة الكهوف، وقال له على مسمع من الصيادين أنه لا يصدق كلمة واحدة مما يقوله عن الأسياد وأنه رأى الجثة بنفسه عند مدخل الكهف.. ثم قال له أيضاً إنه لمسها بيده التي سيأكلها الدود..

وعند العصر سمع الزنجي أن أحد الصيادين عثر على الجثة وراء منطقة الأعشاب، وأن السلحفاة الجريحة ظهرت مرتين بجانبه وسبحت أمامه ببطء كأنها تريد أن تقوده إلى مكان جثة الصبي.. ثم استدارت فجأة وأقلعت في اتجاه المياه العميقة..

وقد قال الفقي إن السلحفاة ظلت في المنطقة حتى تمَّ العثور على الجثة، وأن الأسياد حضروا بعد ذلك مجللين بالسواد ومشوا في جنازة الصبي..

وارتفع نباح الكلاب في القرية فجأة، وأنصت إليها الزنجي فيما كان يعيد زجاجة النبيذ إلى جرابه، ثم التقط أحد خيوطه الملفوفة بعناية في وسط القارب واكتشف أنه ما يزال يفكر في ظهور الجثة وراء منطقة الأعشاب، وقال بصوت عال:

ـ لقد حملها التيار خلال الليل.. وكان بوسعي أن أتنبأ بذلك لو أنني تذكرت أن التيار السفلي يتحرك في اتجاه الحافة الشرقية طوال موسم الخريف لكنني نسيت أن أتذكر ذلك لأنني مجرد عبد سكير..

وكان الفقي قد دعاه إذ ذاك «عبداً سكيراً تربَّى على أكل لحم

الخنزير في بيوت الايطاليين».. وكان قد تشاجر معه في المقهى بعد عودتهم من جنازة الصبي، وقال له على مسمع من رواد السوق.. إن زنجياً زانياً مثله لا يجوز أن يبقى في سوسة يوماً واحداً.. بل عليه أن يعود إلى الكوخ المصنوع من جريد النخل الذي تركه وراءه في منطقة الصابري لكي يبيع الملح في أزقة بنغازي، ثم قال له أيضاً إن الغربان والعبيد السود نذير من الله بالسوء.. وقد التزم الزنجي الصمت إذ ذاك وفضل أن ينسحب من المقهى على أن يتشاجر مع الفقي الذي ظل واقفاً في وسط حلقة من أبناء عمه المسلحين بالعصي إلى صلاة العشاء..

وفي تلك الليلة دفن الزنجي رأسه في الوسادة وقال بهدوء فيما كانت امرأته تراقبه بفضول عبر العتمة:

ـ مسعود الطبال نذير من الله بالسوء.. مسعود الطبال عبد وحيد مغترب في سوسة.

وارتفع نباح الكلاب في القرية مرة أخرى، ولاح خيال أحد الصيادين فوق الساحة الرملية حاملاً مجدافيه فوق كتفه ووضع الزنجي يده على حافة فمه وصاح بأعلى صوته:

ـ المصباح.. ماذا تعتقد أنك تستطيع أن تفعل بدون المصباح؟..

ثم أطرق فجأة وقال لنفسه:

ـ العبد خائف من الظلام.. العبد يصرخ بملء رئتيه..

وكان الصياد يحمل المصباح مطفأ في طرف مجدافيه.. وقد أشعله بعد ذلك عندما وصل إلى قاربه المربوط وراء مدخل الخليج ورفع مرساته وانطلق يجدف واقفاً على قدميه في اتجاه الزنجي.. وعندما حاذاه ألصق قاربه به وقال معتذراً:

ـ هل تأخرت عليك؟.. لقد كان بوسعي أن أحضر مبكراً لولا أن البرغثي أصر على أن ألعب معه شوطاً ثانياً. أين تريدني أن أضع هذه السلة؟..

ومدَّ الزنجي يديه ورفع سلة الخيوط إلى قاربه ثم عاد فاستند على حافة الدفة وقال في ذات نفسه:

ـ البرغثي لا يحتاج إلى قضاء الليل في الخليج لكي يحصل على اطعامه.. إنه يستطيع أن يشتريها من عربة البلدية..

فيما ضحك الصياد في القارب المجاور فجأة وسأله بنزق:

ـ ما الذي دعاك إلى الصراخ؟.. هل تعتقد أنني أحضر إلى هنا بدون المصباح معتمداً على ضوء خدك!.. لقد كان معلقاً في طرف المجداف.

وفي اللحظة التالية كان الزنجي يبحث في هدوء عن كذبة صغيرة.. لقد تعود أن يفعل ذلك عن غير قصد عندما يقرر أن يحسم أمراً ما بسرعة كافية، وتعود أن يجد بغيته دائماً. وقد استدار في العتمة رافعاً يديه إلى جانبه وسمع نفسه يقول بثبات:

ـ المصباح!.. أجل.. أنت تعرف ما أقصده.. إنني لم أحضر معي سوى زجاجة واحدة.. هل كنت تريدني أن أصيح بملء صوتي لكي أسألك عما إذا كنت قد أحضرت مزيداً من النبيذ؟.

وتأمله الصياد برهة ثم انحنى لكي يطلع زجاجتي النبيذ من مؤخرة القارب.. لقد كان الصيادون في سوسة يتناقلون أسماء كثيرة للنبيذ ولكن «المصباح» لم يكن قط أحداً منها..

وأطلع الزنجي مطواته وقطع شريحتي اللحم فوق عارضة القارب ثم فتح زجاجته القديمة وقال مرة أخرى:

ـ البرغثي لا يحتاج إلى قضاء الليل في الخليج لكي يحصل على إطعامه.. هل تريد قطعة من لحم الخنزير؟.. لقد أحضرته من مطعم الرومية..

وعندما مد الصياد يده وأخذ قطعة اللحم قال الزنجي فجأة:

ـ أنا أتمنى أن آكل لحم خنزير حقيقي.. أعني مرة واحدة ليس غير.. هل تعتقد أنه يختلف عن لحم البقر؟.

وأخرج الصياد علبة تبغه وشرع يعد لفافة لنفسه دون أن يقول شيئاً.. كان يعرف أن الزنجي غاضب مما يشاع عنه في القرية، وكان يريد أن يتجنب التورط معه في جدال مفاجيء.. وقد عاد فأشعل لفافته ثم وضع أصبعه في أذنه وطفق يغني بأعلى صوته..

وطار أحد النوارس من وراء الحاجز الصخري واتخذ طريقه عبر الخليج في اتجاه الأجراف الناتئة في المدخل، ثم ارتفع نباح الكلاب في القرية، وقال الزنجي مطرق الرأس:

ـ اشرب.. دعنا من الغناء، إن الصياد الذي يضطر إلى قضاء الليل في الخليج لكي يحصل على إطعامه لا يغني «بالعلم» إلا إذا فقد وعيه..

وضحك الصياد وقال ببطء:

ـ «العلم» دواء للفقر وسوء الحظ.. أنت لا تعرف ذلك لأنك مجرد عبد من عبيد الدنقة.. «العلم» ذخر الصيادين في سوسة وفي بنغازي أيضاً.

وفتح الزنجي الزجاجة الثانية وتذكر وجه صاحب المقهى المقام في وسط القرية.. لقد كان ذلك الرجل أول من دعاه باسم «عبد الدنقة»، وكان قد قال له إن غاية ما يتمناه عبد مثله أن ينام في

الشمس طوال العام ثم يذهب لكي يدق الدنقة على ضريح سيدي داود..

وعاد النورس يطير عبر الخليج متجهاً إلى عشه وراء الحاجز الصخري وتبعه الزنجي متفكراً، ثم قال فجأة:

ـ النوارس غربان بيضاء وقد مسخها الله لأنها تسرق اطعام الصيادين.. هذا ما يقوله لك حوات فقير من عبيد الدنقة..

ورفع الصياد رأسه وتأمله واجماً عبر العتمة، ثم قال بحيرة:

ـ أنا لا أعرف ماذا دهاك هذه الأيام.. إن أحداً لم يعد يستطيع أن يقول لك شيئاً دون أن يثير سخطك.. اسمع كلنا عبيد الله، هذا وجه الحق..

وقاطعه الزنجي بغضب:

ـ أنا لست عبداً لله.. أنا عبد الدنقة، وقد أغواني الشيطان بصيد سلاحف البحر في سوسة.

وقال الصياد بازدراء لا حد له:

ـ أنت عبد عجوز مدلل.. هذا كل ما في الأمر.. لقد قلت لك يا مسعود الطبال إن العمل في صيد السلاحف من شأنك وحدك، وأن أحداً من الصيادين لم يكن ليتردد في تزويد مطعم الرومية بلحم السلاحف.. إننا جميعاً نكسب عيشنا من البحر وليس ثمة أحد بيننا يضمر لك سوءاً.

وأدار الزنجي وجهه وبصق في البحر فيما تردد الصياد برهة ثم قال بعد ذلك:

ـ الفقي وحده ذهب إلى المزارع الرومي وطلب منه ألا يبيع لك المحرك.. أليس هذا ما تريد أن تعرفه؟.. اسمع أنا قلت يا مسعود

الطبال إن الفقي وحده ذهب إلى الرومي صاحب المزرعة، وأن الصيادين أظهروا له استياءهم من هذا العمل، وأقسم له البرغثي في المقهى أنه سيعطيك محركه القديم إذا كنت تحتاج إليه.

وقال الزنجي دون أن يدير وجهه:

ـ اشرب.. دعنا من المحرك الآن.. إنني لا أريد محركاً من أحد، وسوف يظل بوسعي أن أصل إلى الجزيرة بمجدافي..

وطوال الساعة التالية ظل الزنجي يتقاسم الشراب مع شريكه الصياد الذي جاء لكي يعاونه في الحصول على إطعام اليوم التالي، وقد سكرا معاً وتبادلا الكوب المعدني الصدىء المصنوع من إحدى علب الحليب وتبادلا أغنيات العلم بصوت منخفض وتحدثا عن موسم الشلبة والسنيورة توريستا التي ذهبت لقضاء الليلة في مزرعة السيسلي الأعرج، ولكن أحداً منهما لم يقل شيئاً عن السلاحف..

وعندما جدفا بعد ذلك إلى مدخل الخليج تاركين وراءهما عشرة خيوط مبيتة بمهارة على طول الحاجز الصخري، كان الزنجي قد انتعش بفعل النبيذ والنسيم الخريفي الرطب، وكان الزنجي تذكر امرأته وابتسم خلسة في العتمة فيما كان يجتاز المياه الضحلة إلى الشاطىء الصخري، ثم قال بود:

إنها عجوز مبهجة.. أعني امرأة زنجية مبهجة والمرء لن تطاوعه نفسه بأن يستبدلها بأية امرأة أخرى.

وعندما وضع مجدافيه فوق كتفه وانطلق وحده عبر الساحة الرملية تذكر فجأة شيئاً ما وقال بصوت عال:

ـ لقد كنت مخموراً، أعني لو لم أكن مخموراً لما لجأت إلى ضربها.. إن المرء عندما يشرب أكثر مما ينبغي لا يجوز أن يثيره

أحد، ثم إن زنجية مثلها ليست في حاجة حقاً إلى تكليلة.. هذا وجه الحق.

وكان الزنجي قد باع تكليلة امرأته لكي يوفر ثمن المحرك.. وكان قد قال لها إذ ذاك، وهو ينزع الحلقات الذهبية من أذنها.. إن عجوزاً بذيئة مثلها لا يمكن التعامل معها إلا بالعصا، ثم دعاها خنفساء تبول في يد من يمسكها وزعم أنه تزوجها لكي ينقذها من الموت جوعاً في بيت والدها بائع الملح.. وعندما أقعت العجوز الزنجية في ركن الغرفة وشرعت تبكي.. دفن وجهه بين يديه وظل يتأملها برهة من بين أصابعه ثم أحس بشيء ما ينكسر في حلقه وشرع يجاهد لكي يبتلع ريقه.. ولقد أحس الزنجي بذلك الشيء ينكسر في حلقه مرة أخرى فيما كان يعبر الساحة الرملية حاملاً مجدافيه فوق كتفه، وارتفعت يده فجأة على غير قصد منه، لكنه أعادها إلى جانبه طائعاً لأول مرة في حياته ومضى مرفوع الرأس..

وكانت دموع الزنجي تنحدر باتزان عبر أضواء النجوم المتكسرة في العتمة، وكان يستشعر مجراها الدافيء على حافة النسيم الخريفي، وقد اطلع لسانه ولعقها من التجاعيد العميقة على الجانبين، ثم بهره لذعها المالح وراء طعم النبيذ وأغمض عينيه وقال برضاء تام:

ـ البحر يحمله الصياد في عينيه.. هذه ليست دموعاً.

وفي تلك الليلة تسلل الزنجي على أطراف أصابعه محاذراً أن يوقظ امرأته وأحضر صحن العشاء الذي وجده فوق الرماد الساخن ثم غسل يديه في جردل البئر وجلس يتناول طعامه على عتبة السقيفة وعندما تذكر أنه ما يزال يملك ربطة فجل في سلة الخضار

مسح يده في حافة الرغيف ونهض واقفاً لاحضارها، ثم رأى امرأته تخرج مطرقة الرأس من الغرفة المقابلة، وقال بارتباك:

ـ لقد تأخرت في الخليج.. هل كنت نائمة؟..

وقفزت إحدى القطط فجأة في وسط الفناء وراقبتها المرأة بامتعاض وهي تشد رداءها الكتاني حول وسطها فيما قال الزنجي ملوحاً بيده:

ـ عودي إلى فراشك.. أنا سأتناول عشائي هنا.. إنني ما زلت أحتاج إلى أن أغسل المجدافين القديمين.. هل وجدت علبة الشحم؟.

وأحضرت امرأته ربطة الفجل ثم عادت ووضعت براد الشاي الفاقع الزرقة على الرماد الساخن، وقالت من داخل المطبخ:

ـ طبيخة العدس مجرد قليل من الزيت والثوم.. أعني ليست مثل طعام الرومية..

وتوقف الزنجي عن المضغ وظل صامتاً برهة ثم عقد حاجبيه وقال ببطء:

ـ ماذا قلت؟.. تعالي هنا.. أي رومية؟!..

ولكن المرأة لم تخرج من المطبخ.. لقد ظلت ملتزمة مكانها في العتمة دون أن تصدر حركة واحدة، وعندما رفعت صوتها بعد ذلك كان بوسع الزنجي أن يحدس أنها قد بدأت تبكي، وكانت تقول له بسخرية مفتعلة:

ـ الرومية؟.. لا شيء.. أنا كنت أتحدث عن طبيخة العدس.. هذا ما كنت أتحدث عنه يا مسعود الطبال.. أما الرومية فأنا لا أقول عنها كلمة واحدة، ولا أقول إنها تطبخ لحم الخنزير في جميع

الأواني لكي تغش المسلمين.. إنني لا أريد أن أحمل عنها ذنوبها.. ماذا يهمني من أمر الرومية؟..

وتردد الزنجي برهة ثم مسح يده في حافة رغيف الخبز وأزاح الصحن إلى جانبه متجهاً إلى باب المطبخ فيما قالت امرأته بانكسار مفاجىء:

ـ ماذا تريد الآن؟.. اسمع يا مسعود الطبال.. أنا لم أقل لك شيئاً عن الرومية.. إنني لست طفلة تربيها بالعصا اسمع.. أنا عجوز طاعنة في السن ولو كان بختي أفضل قليلاً لكنت اليوم أؤدي فروض الله على النطع وتخدمني بناتي..

ودعك الزنجي أنفه وسألها بحيرة:

ـ ماذا دهاك؟.. لماذا أضربك؟.. إنني لا أعرف ما الذي يدعوك الآن إلى الشجار.. كفي عن البكاء..

وقالت المرأة بعناد:

ـ لن أكف عن البكاء.. هذا ليس من شأنك.. أنني أريد أن أجلس هنا في هذا المطبخ وأبكي كما أشاء.. لماذا لا تذهب إلى صاحبتك الرومية؟..

ثم عادت فدفنت رأسها وراء ردائها الكتاني وقالت مرة أخرى:

اذهب إلى صاحبتك الرومية التي أعطيتها تكليلة الذهب.. لماذا تقف هنا على رأس زنجية مثلي؟.. هل تعتقد إنني لا أعرف كل شيء؟.. اسمع يا مسعود الطبال.. أنا أقول لك إنني أعرف كل شيء وأعرف أنك نزعت التكليلة من أذني لكي تعطيها للنصرانية.

وهز الزنجي كتفيه مغلوباً على أمره ثم استدار على غير هدى

وطفق يبحث عن مجدافيه القديمين حتى وجدهما مسندين على الجدار بجانب البئر فتفقدهما برهة ثم وضع أحدهما على ركبتيه وقال بحيرة:

ـ أنا أعطيت التكليلة للرومية!.. هل أخبرك الفقي بذلك أيضاً؟.. إنه يعرف عادة كل شيء ويعرف كيف يرسل خدامه من الأسياد في أثر زنجي مثلي لكي يقولوا له أين وضعت تكليلة امرأتي.. اسمعي.. إن نقود التكليلة ما تزال في مكانها القديم فوق هذا الرف، انهضي لتريها بنفسك، لقد وضعتها هنا منذ أن أحضرها الدلال.. ولكن عليك أن تصدقي فقيك ابن الزانية..

ورفعت المرأة رأسها وأنصتت إليه بريبة ثم تساءلت بعد برهة:

ـ أي رف؟..

وعندما أشار الزنجي بيده إلى اللوح الخشبي المثبت في جدار الغرفة المقابلة نهضت متباطئة وسحبت يدها فوق الرف حتى عثرت على رزمة النقود فشرعت تعدها عند العتبة، ثم قالت بود مفاجىء:

ـ الذهب لا يفقد قيمته.. كم أعطيت الدلال؟..

وهز الزنجي رأسه وقال باقتضاب:

ـ أين علبة الشحم؟.. إن عليك دائماً أن تصدقي فقيك ابن الزانية.

وعندما أحضرت له علبة الشحم مع براد الشاي الأزرق أشاح بوجهه وقال لها في ازدراء مكتوم:

ـ عودي إلى فراشك.. إنني ما زلت أحتاج إلى أن أغسل هذين المجدافين.. اسمعي.. لماذا لا تعودين إلى فراشك؟..

وتأملته امرأته برهة ثم قالت فيما كانت تتخذ مكانها على الأرض بجانب البئر:

ـ دع ذلك الفقي وشأنه.. إنه لم يذكر لي كلمة واحدة عن التكليلة.. اسمع.. دعه وشأنه.. إن كل مخلوق في سوسة يعرف أنك تناصبه العداء لإرضاء صاحبتك الرومية هذا كل ما في الأمر.. إنني لا أريد أن أتشاجر معك ولكن لماذا لا تبتعد عن مطعم تلك المرأة المريبة؟.. دعها تذهب لكي تحصل على حاجتها من السلاحف بنفسها. نحن لا نأكل لحم السلاحف ولا نصطادها.

وقال لها الزنجي مرة أخرى:

ـ عودي إلى فراشك.. ماذا دهاك؟..

ولكن المرأة لم تتحرك من مكانها، كانت تعرف أن زوجها لا يجرؤ على ضربها خلال الليل، وكانت قد تعودت طوال السنين الماضية أن تصفي جميع معاركها الصغيرة مرة واحدة في ليلة الجمعة بالذات معتمدة على أن أحداً لن يجرؤ على إيذائها في تلك الليلة المقدسة، لكن الزنجي لم يلاحظ ذلك قط..

وقد عادت فأسندت ظهرها إلى الجدار وطفقت تعبث بيدها في تراب الساحة، ثم قالت بصوت خافت كأنها تحدث نفسه:

ـ سلاحف البحر مخلوقات مريبة.. هذا ما سمعنا من أهلنا طوال حياتنا.. إن أحداً لا يتسبب في إيذائها دون أن ينال عقابه، أنت تعرف ذلك..

وأطرق الزنجي برأسه واستشعر الشيء الغامض ينكسر في حلقه مرة أخرى.. كانت امرأته تعيره دائماً بأنه عاقر وكانت تعتقد أن ذلك عقابه من الله مقابل صيده لسلاحف البحر.. وقد تعودت في

البداية أن تطوف على بيوت الفقهاء وتحضر له الأحجبة والأعشاب البرية التي تتركها منقوعة في الماء تحت النجوم طوال الليل، ثم ترغمه على شربها في الصباح، لكنها عادت فتخلت عن ذلك عندما سمعت أن امرأته السابقة أنجبت خمسة أطفال من زوجها التالي، وقالت له في ليلة الجمعة إنها امرأة محظوظة، وإن طلاقها منه كان نعمة من الله.

ورفع الزنجي مجدافه وشرع يتأمله برهة ثم أسنده على الجدار وقال ببطء متعمد:

ـ سلاحف البحر مخلوقات مريبة.. هذا ما سمعته أنا أيضاً طوال حياتي، وسمعت أنها تصيب الناس بالعقم وتسرق جثثهم لكي تخبئها في كهوفها المائية.. سلاحف البحر طيور خضراء.. أعني مثل سيدي داود الذي يخرج كل ليلة من قبره حاملاً ابريق الوضوء ويصلي العشاء على سور المقبرة.. هذا وجه الحق.. ولكن ماذا بوسعي أن أفعل ما دمت لا أعرف حرفة أخرى سوى صيد السلاحف. إنني أحتاج إلى مطاردتها لكي أكسب عيشي، ولو كان سيدي داود نفسه سلحفاة، وكانت الرومية مستعدة لشرائه بثلاثة فرنكات لذهبت لاحضاره إليها مقلوباً على ظهره.

وأشاحت المرأة بوجهها في اشمئزاز فيما ابتسم الزنجي لنفسه خلسة ووضع مجدافه الآخر فوق ركبتيه، ثم قال مرة أخرى:

ـ سلاحف البحر مخلوقات مريبة.. أعني مثل المرابطين، ولكن الصياد أيضاً مرابط.. هذا وجه الحق.. وإذا كان سيدي داود يخرج من قبره ويصلي العشاء على سور المقبرة فإن أي صياد يستطيع أن يفعل ذلك، ولقد رأيت أحد الصيادين ذات مرة يصلي العشاء على طرف الدفة بعد أن ضاق قاربه بجثث الأقراش.

وبصقت امرأته على الأرض ثم نهضت فجأة وانطلقت مسرعة إلى الغرفة المقابلة فيما ضحك الزنجي بصوت عال وعاد يتفقد مجدافه في ضوء النجوم دون أن يقول شيئاً.. كان قد تعود أن يترك امرأته تهرب مذعورة إلى الغرفة المقابلة في أي وقت يشاء.. وكان بوسعه أن يجعلها تتجنب الكلام معه عدة أيام بمجرد أن يذكر أمامها إحدى نكاته الوقحة عن المرابطين.. وقد أثار غضبها ذات مرة حتى إنها هربت إلى بيت أهلها عندما قال لها المرابط المجاور الذي ذهبت لكي تعلق راية حريرية فوق ضريحه كان قد مات متأثراً بركلة من حمارته في ظروف مخجلة..

وكان الزنجي يحسن اختراع القصص المضحكة عن أعدائه، وكان يعتبر المرابطين والرياح القبلية المتربة وصغار الصيادين الذين يعملون بعبوات «الجيلاطين» أسوأ أعدائه.. وقد تعود أن يقحمهم دائماً في أحاديثه لكي يسرد النكات الجديدة التي أعدها عنهم خلال عمله في قاربه ولكنه تخلى عن هذه العادة بعد أن وصل إلى سوسة، واكتفى بترديد بعض نكاته القديمة عن المرابطين وحدهم عندما تضطره امرأته إلى التورط معها في شجار مفاجىء، وقد ظل بوسعه دائماً أن يعود فيكسب ودها مرة أخرى عندما يدس وجهه في الوسادة بجانبها ويمسح بيده على كتفها ويقول لها إنه قد قرر أن يبيع قطعة الأرض التي بنى عليها كوخه القديم في الصابري ويذهبا معاً إلى مكة..

كان الزنجي يستطيع أن يفعل ذلك في أي وقت، وقد فعله تلك الليلة أيضاً ودس وجهه في الوسادة الحمراء المزينة بهلال فضي بجانب رأس امرأته وتنهد في الظلام ثم قال بود:

ـ أنا لم أقصد أن أضايقك.. لقد كنت مخموراً.. هذا كل ما

في الأمر، أعني كنت مخموراً قليلاً وكنت مستاء مما قلته لي عن الرومية.. إنني لا أملك ثمة علاقة بتلك المرأة سوى أنها اختارتني من بين الصيادين لكي أزود مطعمها بلحم السلاحف.. هذا كل ما في الأمر.. إنها تعرفني منذ أن كنا في بنغازي..

وأنصتت إليه امرأته في الظلام دون أن تقول شيئاً.. كانت تعرف أنه يعني كل كلمة حقاً، وكانت تنتظر بداية الحديث عن مكة، فيما وضع الزنجي يده فوق كتفها وقال بعد ذلك:

ـ إنني لا يهمني من أمر الرومية سوى أنها تستطيع أن تدفع لي ثلاثة فرنكات مقابل كل سلحفاة أحضرها إلى مطعمها هذا كل ما في الأمر، ولو كنت تعملين مثلي في هذه الحرفة لعرفت أن بيع السلحفاة لصاحبة المطعم مقابل ثلاثة فرنكات عمل مربح. إن المرء لا يستطيع أن يحصل على سعر أفضل إذا أرسل سلحفاته للبيع في بنغازي.

وأزاحت امرأته يده من فوق كتفها مظهرة عدم رغبتها في سماع المزيد عن سلاحف البحر، فيما قال الزنجي شارد البال دون أن يلاحظ ما حدث:

ـ إنها حرفة رديئة.. هذا وجه الحق.. ولكن المرء يستطيع أن يتذرع بالصبر عاماً آخر أو عامين ريثما تهب الريح إلى جانبه.. وإذا صار في وسعي أن أحصل على ثلاثة فرنكات بالإضافة إلى حصتي من موسم الشلبة فإنني سوف يصبح في وسعي أن أشتري قارباً إضافياً قبل أن يحل الشتاء وسوف أدخل موسم الصيد القادم باعتباري أحد أصحاب القوارب.. ذلك لن يغرقنا في النعيم ولكنه سيوفر لنا دخلاً مريحاً حقاً.. إن حصة القارب الواحد في جمعية صيد السمك تصل أحياناً إلى عشرين فرنكاً في الشهر.. اسمعي

أليس هذا مبلغاً طائلاً.. إنني أستطيع أن أوفر منه ثمن محرك متوسط الحجم خلال عام واحد.

وانكفأت امرأته على وجهها لكي تقنعه بأنها على وشك أن تستغرق في النوم إذا لم يكن يرغب في أن يحدثها عن مكة، ولكن الزنجي كان يعرف أنها ستظل تنصت إليه، وكان قد بدأ يحلم بموسم الشلبة ومحرك الرومي الذي يهدر باتزان في المياه العميقة الزرقة حول الجزيرة.. وقد عاد فوضع يده فوق ظهرها وقال مرة أخرى:

ـ إن بيع السلحفاة لصاحبة المطعم مقابل ثلاثة فرنكات في الأسبوع عمل مربح.. هذا وجه الحق.. وإذا حصلت على محرك الرومي، وترك الله أسماك الشلبة تصل إلى المنطقة خلال الموسم دون أن تملأ الرياح القبلية عيونها بالأتربة، فإنه سيظل بوسعي أن أشتري قارباً جديداً طوله تسعة أمتار قبل أن ينتهي هذا الخريف.. اسمعي.. إن قارباً طوله تسعة أمتار يستطيع أن يغري صياداً مثلي بأن يحضر ملكاً جنياً كامل الهيئة مقلوباً على ظهره لكي تقدمه الرومية لرواد مطعمها مغموساً في الخل.. هذا وجه الحق. هل تعتقدين أنني ارتكبت الآن ذنباً حقيقياً؟.

وفتحت امرأته عينيها في الظلام فجأة وطفقت تنتظر مبهورة الأنفاس.. كانت تعرف أن اللحظة الحاسمة قد حانت وكانت ملابس الحجاج الناصعة البياض تلهب عينيها عبر وهج الشمس الحارقة، فيما قال الزنجي شارد البال:

ـ أستغفر الله العظيم.. أنا لم أقصد أن أتورط في ذنوب السلاحف أو الصيادين.. هذا ليس من شأني.. لقد قلت فقط إن السلحفاة التي تساوي ثلاثة فرنكات نقداً تستطيع أن تغري صياداً

مثلي بالمغامرة.. أعني تجعله يذهب لاحضارها بين حين وآخر مقلوبة على ظهورها حتى إذا وجدها تصلي التراويح في كهفها المائي.. هذا وجه الحق. إن ثلاثة فرنكات في الأسبوع مبلغ لا يطاق، ولكنني لا أريد أن أتورط في ذنب أحد.. أنا أقول ذلك بأعلى صوتي، وأقول أيضاً إنه إذا صار بوسعي أن أوفر ثمن قارب إضافي قبل موسم الصيد القادم وأدفع قيمة الرهن على أرضنا في الصابري فسوف أبيعها على الفور.

ومدت امرأته يدها ولمست ذراعه في ود فيما كان يقول لها عبر العتمة:

ـ ماذا نفعل بقطعة الأرض؟.. إنها ستبقى إلى الأبد مجرد خربة مهجورة يبول فيها المارة أبناء الزناء.. هذا ما نفعله بها. إنني أزمع أن أبيعها على الفور بمجرد أن أدفع ثمن الرهن ثم نشتري بثمنها قطعة أرض هنا أو نذهب إلى مكة..

وقالت امرأته من طرف الوسادة الحمراء المزينة بهلال فضي:

ـ إننا لا نحتاج إلى قطعة أرض هنا.. اسمع لماذا نتورط في شراء أرض في سوسة؟.. هذه ليست بلدنا.. هل سوسة بلدنا؟.. نحن عجوزان طاعنان في السن وقد نلنا نصيبنا من الدنيا.

وأدار لها الزنجي ظهره دون أن ينصت إليها ثم قال بعد ذلك:

ـ سوف نذهب إلى مكة، هذا ما نزمع أن نفعله.. إنني لن أشتري أرضاً في سوسة على أي حال.. لماذا أفعل ذلك؟.. أنا مجرد عبد وحيد مغترب هنا، وسوسة ليست بلدنا..

ثم لوح بيده في الظلام وقال شارد البال:

ـ سوسة بلد الفقي وأبناء عمه المسلحين بالعصي.. أنا لا أملك بلداً على الإطلاق.. إن بنغازي أيضاً لا تخصني هذا وجه الحق.. وسوف نبيع قطعة الأرض ونذهب إلى مكة المكرمة..

ورفعت امرأته رأسها وقالت بهدوء:

بنغازي بلدنا وسوف نعود إليها ذات يوم على أي حال. إن جميع المغتربين يعودون إلى بنغازي في نهاية المطاف.

واستدار الزنجي فجأة ودفن رأسه في صدرها فيما قالت له مفتوحة العينين:

ـ هل سيبقى الطليان في بنغازي إلى الأبد؟.. اسمع.. هل سيبقون إلى الأبد؟..

فهز لها كتفيه ملتزماً الصمت برهة ثم قال ببطء:

ـ لا أدري.. إن ذلك لا يخصني أيضاً.. اسمعي إن ما يفعله الطليان ليس من شأني ولو كان بوسعي أن أواصل بيع أسماكي بعيداً عن سوق البلدية لما قلت عنهم كلمة واحدة.. ولكن العمل في السوق لم يكن يحتمل، وكان حارس البلدية يستطيع أن يستولي على حصيلة أي صياد مقابل الضرائب.. وكانت رسوم الرخصة تصل إلى عشرة فرنكات في الشهر.. إن إنشاء السوق لم يكن في صالحنا.. وقد زاد الأمر سوءاً بعد أن دخلت البلدية شريكة مع أصحاب القوارب الكبيرة وأصبحت تغرق السوق بالسمك قبل أن يصل أول صياد إلى المرفأ.. إن العمل في بنغازي لم يكن في صالح أحد من الصيادين القدماء.

وفي اللحظة التالية كانت أنفاس امرأته تطرق سمعه بانتظام، وكان بوسعه أن ينصت إلى دقات قلبها وهي تتصاعد على مهل

فيما كانت تفتح عينيها نصف نائمة وتهمس على عتبة حلمها العميق الغور:

ـ «مكة نهاية المطاف.. مكة لا يدخلها نصراني واحد.. تبارك اسم الله.. هل تستطيع زنجية مثلي أن تلمس شباك قبر الرسول؟»..

وأدار لها زوجها ظهره وأغلق عينيه ثم عاد ففتحهما فجأة وقال بصوت عال:

ـ الزنوج نذير من الله بالسوء.. هكذا يقول لك فقيك ابن الزانية.. إنه سيذهب إلى مكة هذا العام.

وكان الفقي قد أعلن ذلك في المقهى بعد أن باع قطعة الأرض المجاورة لمزرعة السيسيلي الأعرج لأحد المستوطنين الايطاليين الجدد.. وكان قد سافر إلى بنغازي لكي يقبض ثمنها من البنك ثم عاد في المساء وأخبر الصيادين أنه يزمع أن يؤدي فريضة الحج بالنيابة عن والده المتوفى.. وعندما سأله صاحب المقهى عما إذا كان المرء يستطيع أن يحج نيابة عن والده قبل أن يحج لنفسه مرة واحدة على الأقل، قال له الفقي بدهشة:

ـ ماذا تعني؟.. إنني سأحج لنفسي أيضاً.. هذا أمر واضح ولكنني سأطوف نيابة عن والدي بعد العودة من الرجم.. إن رحمة الله تسعنا معاً.

وفي ذلك اليوم تبادل الصيادون بعض النكات الجديدة عن الفقي، وأقسم صاحب المقهى بالطلاق أنه لم يسمع في حياته قط أن أحداً يستطيع أن يتقاسم حجه مع والده.. فيما أعلن البرغثي أن حجة الفقي غير مقبولة لأنه باع أرضه لأعداء الله.. ولكن الزنجي لم يشارك بكلمة واحدة في هذا الحديث.. كان يعتبر نفسه غريباً عن سوسة، وكان يريد أن يظهر للصيادين أن ما يفعله الفقي لا

يخصه ما دام بعيداً بعداً كافياً عن سلاحف البحر.. وقد اكتفى إذ ذاك بأن قال في اقتضاب:

ـ إن الفقي باع أرضه رخيصة جداً، وأن البنك قد خدعه..

لكنه لم يكتف بذلك فيما كان يستلقي مفتوح العينين بجانب امرأته خلال تلك الليلة بل عاد فتوسد ذراعه مستشعراً أرقاً مفاجئاً، ثم قال بمرارة:

ـ دعه وشأنه.. ماذا يهمك من أمره.. لقد وجدوا أمامهم كلباً أجرباً يريد أن يبيع لهم قطعة أرض فأعطوه عظماً.. ماذا تتوقع منهم أن يفعلوا؟.. يقولوا للفقي لا يا سيدي إن أرضك تساوي أكثر من ذلك مرتين؟.. يقبلوا يده ويقولوا له سامحنا يا سيدي ولكننا نخاف أن تسلط علينا خدامك أبناء العاهرة من الأسياد؟.. بنك روما لا يهمه الأسياد بمقدار عقلة أصبع.. هذا وجه الحق، ثم إن الفقي ما يزال يملك حاجته من الأراضي.. إن ذلك الدرويش المزري يستطيع أن يشتري عشرة قوارب جاهزة للعمل في أي وقت يشاء.

واتكأ الزنجي على جنبه وحدق في العتمة ورأى قوارب الفقي العشرة تمخر مياه البحر وراء الخليج ثم رأى الفقي نفسه يقف في مقدمة أحد القوارب في ملابس الصيادين وابتسم خلسة في الظلام وقال بازدراء:

ـ لا.. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.. البحر لا يحمل فقياً فوق ظهره.. أليس هذا حلماً مضحكاً.. البحر لا يحمل سوى الصياد الذي يلهب ظهره بالمجداف، هل أنا نائم الآن.

وفتح الزنجي عينيه لكي يتحقق من أنه ما يزال مستيقظاً ولكنه

كان قد استغرق في النوم، وكانت قوارب الفقي قد أبحرت في اتجاه الشرق ثم اختفت فجأة وراء نتوء الجبل، فيما ظهر أحد ما فوق الحاجز الصخري ومشى مطرق الرأس في اتجاه مدخل الخليج وعندما دقق الزنجي النظر في وجهه اكتشف أنه مبلل بالدموع وسأله فيما كان يحلم:

ـ منصور.. هل أنت منصور؟.. اسمع.. ماذا حدث؟..

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وقال بحيرة:

ـ ما هذا؟.. إن منصور مات منذ شهر كامل؟..

وكان الزنجي يحلم مفتوح العينين، وكان قد رأى الصبي الذي لقي حتفه في حادثة السلحفاة يمر بالقرب منه فوق الحاجز الصخري وينطلق باكياً على غير هدى صوب مدخل الخليج ثم رآه يظهر مرة أخرى في طرف الحاجز ويتسلق الصخور المدببة بحذر قادماً في اتجاهه.. وعندما اتكأ الزنجي على مجدافه ودقق النظر جيداً رأى الصبي يقف على الجرف المغمور في المياه ويلوح بيده، وقال له فيما كان يحلم:

ـ ماذا تريد؟.. أنا لا أستطيع أن أصل إليك.. عد إلى مدخل الخليج..

ثم تذكر مرة أخرى أن الصبي مات منذ شهر كامل.. ومد يده في الظلام مستشعراً رعباً صاعقاً ونهض الصوت العالي يقول في داخله:

ـ إنه ميت.. دعه وشأنه.. ماذا يريد هذا الصبي ابن الزنا؟.. لا تمد له يدك.. إنه لا يضمر لك سوى السوء..

وفي اللحظة التالية كانت امرأته تهزه بعنف وتقول له من طرف

الوسادة المزينة بهلال فضي:

- استيقظ.. ماذا دهاك؟.. من الذي لا يضمر لك سوى السوء؟..

وانكفأ الزنجي على وجهه وأغلق عينيه برهة ثم عاد ففتحهما مرة أخرى وقال بذل مفاجيء:

- ماذا يريد مني؟.. أنه ميت.. أنا أعرف إنه ميت وأعرف أنهم بعثوه لكي يقودني إليهم..

ورفعت امرأته رأسها وظلت تراقبه برهة ثم طرق سمعها صوت المؤذن في جامع القرية وقالت بهدوء:

- لا إله إلا الله.. من الذي لا يضمر له سوى السوء لماذا لا يبتعد عن ذلك الفقي المشعوذ ويتركه وشأنه؟.

ثم التقطت رداءها الكتاني وخرجت إلى الفناء تاركة باب الدار مفتوحاً على مصراعيه، وانشغلت بإيقاد النار عند عتبة المطبخ.. وكانت أضواء الفجر الرمادي تغمر الساحة وكانت إحدى الحمامات البرية قد حطت وراء مدخل السقيفة وشرعت تلتقط فتات الخبز المتبقي من الليلة الماضية وقد رفعت رأسها مستطلعة عندما ارتفعت ألسنة النار وأقلعت فجأة عبر الفناء فيما أنصت الزنجي إلى حفيف أجنحتها واجماً بعد أن أيقظه النسيم الخريفي البارد المتدفق من باب الغرفة ثم سحب اللحاف على وجهه وقال في الظلام:

إنه مجرد حلم.. هذا كل ما في الأمر، وإن معظم الناس يحلمون بالموتى..

ثم عاد فالتزم الصمت برهة وقال بعد ذلك:

ـ أنا لم أمد يدي على أي حال.. لقد كان بوسعي أن أجدف بمحاذاة الحاجز وأمد له يدي لكي ألتقطه من فوق الجرف، ولكنني لم أفعل ذلك.. إنه لم يستطع أن يقودني إلى أسياده ابن الزنا..

وكان الزنجي ما يزال يرتجف امتعاضاً من حلمه المفاجىء وكانت رؤية الصبي الشمعي البياض الذي وقف يلوح له فوق الجرف قد شلت ارادته لبعض الوقت حتى خيل إليه أنه على وشك أن يجهش بالبكاء، لكنه عاد فاستجمع شجاعته بعد ذلك وقال على حين غرة:

ـ إنه يريد أن يشد أزرك.. هذا كل ما في الأمر.. ماذا دهاك؟..

.. وعندما خرج الزنجي في الصباح قاصداً مقهى الصيادين الواقع في وسط القرية، التفت خلسة في اتجاه الخليج ونظر إلى الحاجز الصخري الذي ظهر الصبي فوقه خلال الليل مستشعراً ألفة مقززة ثم أدار وجهه عنوة، وقال مرة أخرى:

ـ إنه يريد أن يشد أزرك.. هذا كل ما في الأمر.. وأن معظم الناس يحلمون بالموتى بين حين وآخر..

وكان الزنجي قد حلم بالصبي بضع مرات منذ حادثة السلحفاة، وكان قد رآه أول الأمر يخرج على حين غرة من منطقة الكهوف ويتسلق صخور الجزيرة متجهاً إلى طرف اللسان البحري.. ثم رآه بعد ذلك في مرات متفرقة يذرع جانب الجزيرة الشرقي مطرق الرأس واقترب منه ذات ليلة معتقداً أنه تخلف عن اللحاق بالقوارب وقال له فيما كان يحلم:

ـ منصور.. هل تريدني أن أحملك معي.. إن جميع القوارب قد عادت إلى القرية..

ولكن الصبي لم يلتفت إليه.. لقد أدار له ظهره وابتعد مطرق

الرأس في اتجاه وسط الجزيرة، وعندما رآه الزنجي في الليلة التالية كان يغالب الأمواج وحده منطلقاً في اتجاه القرية، وكان أحد الأقراش يسبح في أعقابه على وجه المياه ويهاجمه مدفوعاً بجوعه الأعمى.. ثم يرتد فجأة إلى الوراء ويواصل الدوران حوله.. وقد لفت سلوك القرش نظر الزنجي وظل يراقبه فاغراً فمه، ثم دفن وجهه في الوسادة وقال بصوت عال:

ـ إنه خائف منه.. ولكنه سيستجمع شجاعته عما قريب.. إن الصبي لن يصل إلى القرية قط..

ولكن الصبي وصل إلى القرية، ورآه الزنجي في الليلة الماضية يعبر الحاجز الصخري ويلوح له بيده وتذكر لأول مرة منذ أن بدأ يراه في أحلامه أنه مات منذ شهر كامل.

ثم تذكر جثة القرش واستدار مرة أخرى في اتجاه الخليج مستشعراً ألفة مقززة.

لقد عثر عليها الصيادون طافية في المياه الضحلة وراء الحاجز الصخري.. وكانت كريهة الرائحة إلى حد لا يطاق وكانت صغار الأسماك تدور حولها في فضول دون أن تقترب منها. وقد قال الصيادون أن القرش مات بفعل أحد العبوات الناسفة بعد أن كسرت الهزة العنيفة ظهره ثم حمله التيار إلى المياه الضحلة، وزعم صياد عجوز كان يعمل بشبكته في الخليج أنه رأى القرش يطارد أسماك الشلبة قرب الحاجز منذ بضعة أيام، وإنه لا بد قد مات مختنقاً في المياه الضحلة بعد أن قاده طمعه إلى منطقة الأجراف، وقد وضع الزنجي يده فوق أنفه واستدار إذ ذاك مبتعداً دون أن يقول شيئاً، لكنه عاد فخيل إليه الآن أنه رأى ذلك القرش يطارد الصبي في المنام، ورفع يديه إلى جانبه وقال بصوت عال:

ـ قد كان يسبح في أعقابه.. أنا رأيته بنفسي.. ثم نظر حوله مذعوراً.. وقال بعد برهة:

ـ ما الذي رأيته بنفسي؟.. أنا لم أر شيئاً على الإطلاق هذا ما أحتاجه الآن. أن أمشي في شوارع سوسة وأتحدث وحدي بصوت عال لكي يقال عني أنني فقدت رأسي أيضاً. ألا يكفي أن السلاحف المشبوهة قد أصابتك بالعقم؟. لقد كان الأمر كله مجرد حلم مخجل لأنك تنام كل ليلة ممتلىء البطن بالنبيذ وطبيخة العدس.. ولأن عبيد الدنقة لا يرون أحلاماً أفضل على أي حال..

كان الزنجي يعرف أن الخوف بدأ يعتريه من حلمه المنتظم، وكان ظهور جثة القرش قرب الحاجز قد منح ذلك الحلم واقعاً مادياً محيراً، لكنه كان يحس بالخجل تجاه مخاوفه، وكان قد تعود طوال السنين الماضية الحافلة بالإثارة والخوف أن يضع شكوكه وراء ظهره ويمضي في سبيله خالي البال حتى يجد طريقه أو يدفعه شيء ما ويتركه يسقط على وجهه.. وتعود أن يتوقف إذ ذاك عند أول حانة يجدها قرب المرفأ ويسند مجدافيه على الجدار ويشتري لنفسه زجاجة نبيذ لكي يحتفل بالنصر أو بالهزيمة على حد سواء.

كان الزنجي صياداً حقيقياً من جميع الوجوه، وكان قد تعلم من البحر أن يبقى دائماً فوق السطح ويرتاد الأعماق بشبكته وحدها.. وقد عاد فوضع يديه وراء ظهره فيما كان ينطلق قاصداً مقهى الصيادين ونظر إلى الحاجز الصخري واجماً ثم استدار في اتجاه سوق القرية وقال بهدوء:

ـ الصبي ابن زنا.. وكذلك سمك القرش والصيادون الذين يعملون بعبوات الجيلاطين وأسماك الشلبة.. إنهم جميعاً أبناء زنا

وليس ثمة ما يهمني من أمرهم.

وعندما ظهر الفقي فجأة عند باب المقهى وشرع يلوح له بيده عقد حاجبيه وقال مرة أخرى:

ـ ليس ثمة ما يهمني من أمرهم.. لماذا يلوح لي الآن.. هل زارته ملكة السلاحف مجللة بالسواد وأقسمت أمامه بأنها تزمع أن تكسر ظهري؟.. إن المقهى لم يعد سوى مكان للشجار مع الأسياد!..

لكن الفقي لم يتشاجر معه ولم يقل له شيئاً عن السلاحف لقد كان ينتظره لكي يترجم له عقد البيع الذي حرره المستوطن الجديد بشأن قطعة الأرض، وكانت الشكوك تساوره بشأن البئر الواقع على طرف الحد الشرقي، وعندما أخبره الزنجي أنه لا يعرف القراءة نظر إليه مدهوشاً ثم لوح بيده في يأس وقال بعد برهة:

ـ لقد انتظرتك هنا منذ الصباح الباكر.. أنت تعرف لغتهم وتتحدث معهم بطلاقة، وقد ظننت أنك تستطيع أن تترجم لي العقد..

وأطرق الزنجي برأسه مستشعراً ارتياحاً مفاجئاً، وقال بعد ذلك:

ـ أنا أفهم كلامهم.. أعني هكذا عندما يتحدثون معي، وأستطيع أن أرد عليهم لكنني لا أعرف الحروف..

واقترب منهما صاحب المقهى واضعاً يديه فوق بطنه وشرع يلف إبهاميه بسرعة حول بعضهما على عادته عندما يغالبه شعور طارىء بالمغامرة، ثم قال فجأة في صوت حاد ظل يتردد كالصدى داخل جسده المفرط السمنة:

ـ الرومية تستطيع أن تقرأ لك نص العقد.. لماذا لا تذهب

إليها.. إن العبد يفهم لسانهم.. أعني إذا قرأت له الرومية الحروف بصوت عال فإن العبد يستطيع أن يترجم لك النص، هل فهمت ما أعنيه؟؟..

ورفع الزنجي رأسه وظل ينظر إليه صامتاً، كان يعرف كثيراً من النكات القديمة عن بطن صاحب المقهى.. وكان يحب أن يراقبه عندما يضع يديه فوقها ويتحدث منهمكاً في لف إبهاميه حول بعضهما. لقد كان يبدو إذ ذاك كأنه يغرف كل كلمة من بطنه مباشرة في جردل غير مرئي.. وقال الفقي ملوحاً بيده:

- الرومية واحدة منهم.. إنها تستطيع أن تغشنا.. أعني من يدري فربما تتعمد أن تغشنا.. هل الرومية مأمونة الجانب؟..

وتحرك إبهاما صاحب المقهى لكي تغرفا له شيئاً ما ثم غير رأيه فجأة وعاد مطرق الرأس في اتجاه الوجاق، فيما نهض الزنجي واقفاً والتقط صندوق اطعامه الذي تركه له شريكه وراء الباب، وقال بهدوء:

- اذهب إلى الكنيسة.. إن القسيس الجديد يتكلم لغتنا بطلاقة.. لقد تحدثت معه بنفسي..

ثم استدار عند الباب ووقف ينظر إلى الفقي مستشعراً رغبة جامحة في إذلاله..

كان يعرف أن قرار الحكومة ببناء كنيسة في سوسة قد أثار الفقي إذ ذاك حتى انه أعلن في البداية انه سيطلب من الأهالي مساعدته على هدمها قبل أن يتم البناء، ثم عاد فغير رأيه بعد أن جره الشرطة للتحقيق معه، وأعلن في اليوم التالي أنه سيذهب إلى بنغازي لكي يشكو الأمر إلى نائب الوالي ويستصدر منه إذناً بنقل الكنيسة إلى مكان آخر بعيداً عن القرية، لكنه تراجع عن ذلك أيضاً

بعد أن عاد من بنغازي واكتفى بالقول إن الحكومة وعدت ببناء جامع جديد فوق التلة المشرفة على الخليج.

وكان الزنجي يعتقد أن الفقي قبض رشوة من الحكومة، وكان يريد أن يذكره بذلك عندما أشار عليه بالذهاب إلى القسيس، لكن الفقي لم يلاحظ هذه الخدعة الصغيرة واكتفى بأن قال في انكسار:

ـ الرومية أهون من الكنيسة، إنني لا أستطيع أن أقترب من ذلك المبنى.. لماذا يرسلون قسيساً يتكلم بالعربي.. هل تعتقد أنه مبشر؟..

ورفع صاحب المقهى رأسه فجأة ووقف متردداً لبعض الوقت ثم حزم رأيه وغرف سره مرة واحدة ودلقه من وراء الوجاق..

ـ إنه جاسوس.. هذا هو القسيس الجديد.. جاسوس ابن عاهرة يتسلل دائماً على أطراف أصابعه ويظهر أمامك فجأة دون أن تعرف من أين أتى.. لقد زارنا هنا بضع مرات ولم يكن بوسع أحد أن يراه قبل أن يقف في وسط المقهى.. اسمع أنا أقول إنه جاسوس، وأقول إنه يحمل مسدساً تحت جلبابه الأسود. لقد رأيته ناتئاً على جنبه الأيسر بنفسي..

ووضع الفقي أصبعه على فمه في إشارة خفية لصاحب المقهى لكي يلتزم الصمت ولكنه لم يستطع أن يكبح جماحه. كان الجردل غير المرئي قد انفلت مرة أخرى واندلق بنزق وراء الوجاق:

ـ إنه جاسوس.. خنزير ابن عاهرة جاسوس.. هذا ما أقوله لك يا حاج.. لماذا تريدني أن أسكت؟.. إن العبد ليس جاسوساً.. هل تخاف أن ينقل له كلامي.. اسمع إن العبد ليس جاسوساً هذه مجرد كذبة من جانبك يا حاج، ولكن القسيس ابن العاهرة هو الذي يتسلل دائماً على أطراف أصابعه ويظهر أمامك فجأة دون أن

تعرف من أين أتى..

وضحك الفقي في بلاهة وظل يفرك يديه صامتاً، ثم قال للزنجي في ارتباك واضح:

ـ هل تعتقد أنه مبشر؟.. إنني لا أستطيع أن أقترب من ذلك المبنى المزدان بالصلبان.. اسمع سوف نذهب معاً إلى الرومية، أعني ليس الآن، ولكن بعد أن تعود في آخر النهار..

كان يحاول جاهداً أن يغطي ما ذكره صاحب المقهى.. وكان يحس أنه فوجىء بطريقة متسمة بالغدر، لكن الزنجي لم يشأ أن يستغل فرصة ارتباكه، لقد اكتفى بأن هز له رأسه ثم استدار ببطء وانطلق في اتجاه الخليج.. وعندما وصل إلى قاربه ووضع صندوق الاطعام تحت حاجز الدفة لوح بيده فجأة ثم قال ضاحكاً:

ـ أنا أيضاً جاسوس للطليان.. هذه لعبة أخرى أكثر وقاحة لماذا؟.. هل أخبره الأسياد بذلك أيضاً؟.. أعني ماذا يريد الفقي مني؟؟..

ثم عاد فجر قاربه بجانب المدخل وربطه في المياه الضحلة وانطلق مرة أخرى في اتجاه بيته محاذراً أن ينظر إلى الحاجز. وعندما عاد بعد ذلك حاملاً مجدافيه ومعطفه الشتوي القديم، كان قد نسي كل شيء، ونسي الفقي والطليان والكنيسة، ونسي الصبي أيضاً وبدأ يتحدث مع الريح الشرقي البارد الملمس الذي هبَّ فجأة من وراء التلال وانطلق يجمع السحب على وجه المياه، وقد قال له الزنجي إن الوقت ما يزال مبكراً، وإنه يستطيع أن ينتظر قليلاً ويهب كما يشاء في آخر النهار، ثم رفع رأسه ورأى السحب الكثيفة تسبح على سطح البحر، وقال لها في غضب:

ـ هل جئت لكي تسقي حقول القمح العطشانة؟..

ماذا تعتقدين انك تستطيعين أن تفعلي هنا.. حقول القمح وراء الجبل يا رحمة الله..

ثم بصق في اتجاهها فجأة وقال في ذات نفسه:

ـ دعها وشأنها.. هذه ليست رحمة الله.. هذه مجرد سحب متشردة وجدها الريح الشرقي في طريقه وحملها إلى هنا لكي تبول في البحر.. هل تعتقد أن الأمر يخصك؟..

وعندما جدف بعد ذلك عبر مدخل الخليج وانطلق ميمماً صوب الجزيرة كان المطر قد بدأ في الهطول، وكانت النوارس التي فاجأها تغير الطقس تقلع على ارتفاع منخفض عائدة إلى أعشاشها وراء الحاجز الصخري.. وقد أطلع الزنجي رأسه من تحت معطفه الشتوي ونظر إليها مستشعراً وداً عميقاً، ثم قال في ذات نفسه:

ـ لقد خدعها الضوء.. إن غياب الشمس وراء السحب يخدع الطيور دائماً، ويخدع أيضاً بعض الصيادين.. لكن المطر لن يستمر في الهطول..

وعندما التفت إلى الخلف ورأى السحب ما تزال تتجمع بكثافة مريبة قال بصوت عال:

ـ أنا لا أزمع أن أعود يا رحمة الله.. إنني لست نورساً أخرق يمكن خداعه بالضوء الرمادي.. المطر لن يستمر في الهطول.. هذا ما أقوله لك، وأقول أيضاً إن الريح الشرقي النتن الرائحة أصغر شأناً من أن يضع نفسه في مرتبة رياح الأمطار الحقيقية..

وفي اللحظة التالية كان الزنجي يجدف تحت وابل مريب من المطر الصاعق البرودة.. وكانت حبات الماء تندفع بعنف على حافة الريح القارص وتصفع وجهه مثل حزم مسحورة من الابر الثلجية، وقد أغلق عينيه مستشعراً برودة المطر في دهشة، ثم دفن وجهه

وراء حافة معطفه وقال بصوت مرتجف:

ـ إنه يضربني.. أليس هذا مضحكاً؟.. إن الريح يفهم كلامي وقد اعتراه الغضب مني..

وفجأة فتح عينيه مصعوقاً وصرخ بأعلى صوته:

ـ ماذا دهاك؟!.. لماذا تعتقد أن الريح يضربك.. هل تريد أن يعتريك الخوف؟.. إنه مجرد ريح.. انظر إنه مجرد ريح شرقي وضيع الشأن..

ومد الزنجي يده عبر خيوط المطر.. واستشعر حزم الابر الثلجية عبر عتمة الضوء الرمادي، ثم اكتشف أنه يلهث بإعياء وتوقف عن التجديف فجأة وترك رأسه يسقط بوهن فوق حافة القارب.. وعندما استرد أنفاسه بعد ذلك ورأى صندوق الاطعام يسبح بين قدميه في مياه المطر رفعه فوق الدفة ونظر حوله متعباً ثم قال بهدوء:

ـ أنا لا أستطيع أن أسبق المطر.. إنني لا بد أن أمضي ببطء أكثر إذا كنت أريد أن أصل إلى الجزيرة حياً.. لماذا لا يبيع لي ذلك الرومي محركه القديم؟..

ثم رفع رأسه بعد ذلك ولاحظ انقطاع المطر عن الهطول ورأى النوارس تحلق مرة أخرى منطلقة صوب الجزيرة فيما اخترق شعاع الشمس حافة السحب وانعكس في عمود فضي متوهج على سطح المياه.. وقال الزنجي لشعاع الشمس:

ـ هل سمعتني أصرخ مثل الطفل؟.. لقد كنت خائفاً إلى حد لا يطاق.. إن ذلك المطر لم يكن مجرد ماء على أي حال.. أعني ماذا؟.. لقد كان يقرص كالابر وكان نتن الرائحة.. هل تعتقد أنه تحذير من الأسياد لكي أبتعد عن السلاحف؟..

وقال له شعاع الشمس:

ـ أنت زنجي مضحك.. أعني عبد عجيب مضحك.. وإن المرء لا يستطيع أن ينصت إليك دون أن يساوره الغضب.. اسمع إن ماء المطر لم يكن نتن الرائحة.. هذه مجرد كذبة من جانبك، ولكنه كان بارداً لأن الريح الشرقي بارد أيضاً.. هل تعتقد أنك تستطيع أن تخدعني.. إن المطر لا يهمه ما الذي تزمع أن تفعله بالسلاحف..

وهز الزنجي رأسه موافقاً وانطلق يجدف في اتجاه الجزيرة.. كان قد تعود أن يتحدث مع شعاع الشمس وأحياناً أيضاً مع حربونه القديم الذي يربطه بجانبه على طول القارب، وكان قد تعلم من صيادي السمك الايطاليين الذين عمل معهم في بنغازي أن الحربون اسمه «ميدزو مارينايو» لأنه يؤدي عمل «نصف بحار» على أي قارب وكان يعامل حربونه مثل بحار كامل ويقول له عندما يسلطه في عنق احدى السلاحف:

ـ سوف نقتسمها مناصفة.. إنك تستطيع أن تنال حصتك في أي وقت..

وقد مد يده إذ ذاك وتلمسه برفق على جانب القارب ثم عاد فزاد من سرعته قائلاً بغضب:

ـ كم يستغرق عبد مثلي لكي يصل إلى الجزيرة.. إن جميع الصيادين يفقدون وقتهم في الحديث مع أنفسهم ولكني في الواقع أفوقهم جميعاً. هل تعتقد أنني أستطيع أن أصل هذا العام؟..

وعندما انزلق بقاربه بعد ذلك على حافة الأجراف الناتئة قرب الجزيرة، ورأى بعض الصيادين يطرحون شباكهم على طول الجزء الشرقي عاد فاستدار ميمماً صوب اللسان ثم ولج بقاربه منطقة

الأجراف وربط أحد خيوطه على الحافة وعاد يجدف ممسكاً طرفه بين أسنانه دون أن يتوقف لكي يسترد أنفاسه.

كان يملك خمسة خيوط في سلته، وكان يعرف أنه سيحتاج إلى وقت طويل لكي يمدها على بعد كاف من شاطىء الجزيرة ويضمن أن صغار الأسماك النهمة لن تأكل طعامه خلال النهار.. وقد عمل طوال الوقت دون توقف، ومد ثلاثة خيوط متوازية جنوب اللسان ثم جدف في اتجاه الطرف المغمور في المياه ودار حوله مستشعراً لذعة الرياح الشرقية الباردة، وعندما التفت فجأة ورأى إحدى السلاحف تغوص مذعورة قرب منطقة الكهوف ضحك بصوت عال وقال لها أول الأمر:

ـ عودي إلى بيتك يا سيدتي.. إن الريح الشرقي لا يطاق.. وأنا قلت ذلك دائماً.

ثم قطب حاجبيه وسمع نفسه يقول ببله:

ـ انتظري.. ماذا تريدين؟.. أنا ما زلت أملك خيطين هنا، وسوف أعود إليك بمجرد أن أفرغ من مدهما.. هل تعتقدين أنني عجوز بطيء إلى حد لا يطاق؟..

وفي لحظة ما خيل للزنجي أن صوته لم يصدر من داخله بل جاء بطريقة مفاجئة من جانب القارب الأيسر حيث ربط حربونه، ولكن الحربون لا يتحدث مع السلاحف.. لقد كان ذلك فيما يبدو مجرد وهم، وكان الزنجي يلهث من الارهاق، وقد عاد فبصق في البحر ونظر واجماً إلى حافة اللسان وقال بعد برهة:

ـ ذلك لا يدعو إلى الدهشة ان الصياد يتحدث أيضاً بحربونه.. أعني ليس دائماً ولكن عندما يخاطب سلاحف البحر..

ثم ربط خيطه في الحافة وعاد يجدف متجهاً إلى عرض البحر، عندما تذكر فجأة أنه لم يعد يملك سوى سمكة واحدة في صندوق الاطعام، وقال في ضيق:

ـ إنها تكفي.. سوف أقسمها بين الخيطين.. ماذا تريدني أن أفعل.. إن الخليج مقفر من الأسماك..

وكان الزنجي يبيت خيوطه لأقراش البحر التي ترتاد شاطىء الجزيرة وراء أسراب الشلبة، وكان يستعمل صنانير كبيرة الحجم تعود بقية الصيادين أن يلجأوا إلى تغطية معظم أجزائها بخيوط الصوف لكي يوفروا اطعامهم.. لكن الزنجي لم يكن يحب هذه الخدعة، وكان يشعر تجاهها بالخجل وقد قلب سمكته على راحة يده ثم رفعها من ذيلها ونظر إليها بازدراء وقال بعد ذلك:

ـ إنها صغيرة إلى حد كاف.. وإن المرء ليحس بالصفاقة عندما يضطر إلى أن يقسمها بين صنارتين.. أعني هذا ليس عدلاً أن يحضر المرء هذه الدودة المزرية في قاربه ثم يقسمها أيضاً إلى قطعتين لكي يخدع بها الأقراش..

ثم دفن صنارته في جوفها دون أن يقطعها وأدلاها بحذر على حافة المنطقة المعشبة وقال في ذات نفسه:

ـ الرزق على الله.. دع القرش يأكل سمكته بالهناء.

وعند العصر عاد الزنجي إلى حافة الجزيرة الشرقية وانضم إلى الصيادين الذين طرحوا شباكهم لآخر مرة وجلسوا يشربون الشاي على الرف الصواني.. وقد وضع معطفه على الأرض بجانب موقد النار واستلقى فوقه متوسداً ذراعه وشرع يراقب السحب واجماً حتى تذكر فجأة شيئاً فلوى رأسه وقال بصوت عال:

ـ لقد كان مطراً غريباً بارداً.. أعني هذا الذي هطل خلال الصباح..

ونظر إليه الصيادون لكنهم لم يقولوا له شيئاً.. كانوا ينصتون إلى البرغثي الذي ظل يسرد عليهم تفاصيل ما حدث خلال حفلة استقبال الوالي الجديد في بنغازي، وكان أحد الصيادين قد أشار إلى الزنجي بيده لكي يلتزم الصمت، ثم تساءل بغضب:

ـ هل قالوا له ذلك حقاً؟..

وهز البرغثي رأسه في وقار على عادته عندما يزمع أن يقرر حقيقة رديئة عن أحد ما، ثم قال:

ـ أجل ألم تسمعني.. لقد اجتمعوا في بيت القاضي ابن الزنا وأعلنوا أنهم سيذهبون إلى الوالي الجديد لكي يرفعوا إليه رغبة الأهالي في القتال إلى جانب ايطاليا.. اسمع.. أنا أقول لك.. هذا ليس كذباً.. إنهم سوف يأتون إلى سوسة في أي وقت، وسوف تجد نفسك مضطراً لترك أسرتك والذهاب معهم للقتال في الحبشة.

وهتف الصياد بغضب أكثر:

ـ أنا لن أذهب معهم إلى أي مكان.. ماذا يهمني من أمر الحبشة..

واتكأ الزنجي على جنبه ونظر إلى السحب المعلقة على وجه المياه ثم التقط قطعة فحم من جانب الموقد وطفق يخط بها فوق الصخرة الملساء، فيما راقبه البرغثي برهة قبل أن يهز رأسه ويعلن مرة أخرى:

ـ لقد اجتمعوا في بيت القاضي ابن الزنا وزعموا أن علينا أن

نقاتل بجانب إخوتنا الطليان ضد الحبشة.. اسمع هذا ليس كذباً.. إن المفتي نفسه أصدر فتوى بهذا الشأن انتظر.. سوف أتذكر لك اسمه..

وضحك أحد الصيادين بصوت عال وقال من أقصى الرف الصواني:

ـ مسعود الطبال زنجي من الحبشة.. إن علينا أن نسلمه للطليان.. هل تعتقد انه جاسوس؟..

وتذكر الزنجي ما حدث في المقهى خلال الصباح، وتذكر الفقي والكنيسة والمطر النتن الرائحة وخط بقطعة الفحم دائرة قبيحة بجانب يده ثم قطعها بخط طولي دون أن يقرأ شيئاً، فيما رفع البرغثي براد الشاي من فوق موقد النار وسأله بود:

ـ هل رضي الرومي بأن يبيع لك محركه؟.. لقد سمعت أنك عرضت عليه عشرين فرنكاً.

ورفع الزنجي رأسه ونظر إليه بدهشة ثم نهض واقفاً ووضع معطفه فوق كتفه وقال بملل:

ـ أنا لا أحتاج إلى محرك على الإطلاق.. من زعم لك أنني عرضت عشرين فرنكاً مقابل محرك الرومي؟. هل تريد أنت أيضاً عشرين فرنكاً مقابل محركك القديم؟..

وعندما مد له البرغثي طاسة الشاي دلقها في جوفه مرة واحدة وقال بعد ذلك:

ـ لقد عرضت عليه عشرة فرنكات.. هذا ما عرضته عليه، وإذا كنت تريد أن تبيع لي محركك فسوف أفضل أن أشتري منك.

وقال له البرغثي مطرق الرأس:

ـ سوف نتحدث عن ذلك في المقهى.. نحن سنعود بمجرد أن نرفع هذه الطرحة، هل ستعود أنت أيضاً؟..

وهزَّ له الزنجي رأسه واستدار عائداً إلى قاربه المربوط في طرف الرف الصواني.. كان لا يريد أن يخبر الصيادين بأنه يزمع البقاء في الجزيرة، وكان قد أخفى حربونه أيضاً على طرف اللسان لكي يضمن أنه لن يثير شكوكهم، لكن الصيادين حدسوا ذلك على أي حال.. وقال البرغثي فيما كان يراقبه بضيق من حافة الرف الصواني:

ـ إنه يبحث عن السلاحف.. لقد جاء إلى هنا لكي يمسح منطقة الأجراف.. أنا أعرف أنه لا يجدف حول الجزيرة لمجرد الحصول على طاسة الشاي.

ودار الزنجي حول الرأس الصخري ومد عنقه لكي يرى حافة الأجراف المعشبة ثم انطلق يجدف واقفاً على قدميه حتى وصل إلى اللسان.. وعندما التقط حربونه المدفون عند الحافة قال له بيطء:

ـ هل تأخرت عليك؟.. لقد كنا نتحدث عن الحبشة، هذا ما كنا نتحدث عنه.

ـ ثم ربطه مرة أخرى على جانب القارب وعاد يجدف في اتجاه خيوطه متعمداً أن يظل على بعد كاف من منطقة الأجراف..

ولاح أول أسراب النوارس العائدة من وراء النتوء الجبلي وعبر الجزيرة على ارتفاع عال ثم دار غرباً وانطلق في اتجاه القرية. فيما دوى محرك أحد القوارب وتبعه محرك آخر على جانب الجزيرة وظهرت الشمس الصفراء فجأة وراء السحب المعلقة فوق سطح المياه وقال لها الزنجي:

ـ ماذا تريدين؟.. ألم تري زنجياً يبيت خيوطه في حياتك قط؟..

هذا ما أفعله هنا..

ثم ابتسم خلسة وقال في ذات نفسه:

إنها تعرف.. الشمس العظيمة المباركة تعرف كل شيء، هل تعتقد أنك تستطيع أن تخدعها مثل البرغثي؟. وفجأة رفع الزنجي رأسه وقال للشمس:

ـ الليلة يا سيدتي سيربط هذا العبد الحافي القدمين ملكة حقيقية وراء قاربه ويقطرها مقلوبة على ظهرها، هل يدعوك ذلك إلى الضحك؟..

.. كان يحس بالوحدة..

وكان يبوح بسره للشمس لكي يستميل ودها، لقد تعود أن يفعل ذلك بين حين وآخر وتعود أن يتركها تهز له رأسها الفضي وتقول له بصوت عال:

ـ هذا حسن أيها الصياد، لقد عرفت الآن ما تنوي أن تفعله وأنا أقول لك إنه حسن..

لكن الشمس لم تقل له شيئاً ذلك المساء..

لقد توقفت تنظر إليه صامتة ثم انزلقت ببطء وراء السحب المعلقة على سطح المياه، فيما نفخ الريح الشرقي البارد الملمس على طول حافة اللسان وحطّ أحد النوارس فوق الجزيرة وشرب من الغدير حتى ارتوى ثم طار فجأة وأقلع في اتجاه القرية..

ودار الزنجي بقاربه لكي يلج به منطقة التيار، وخطر له فجأة أنه يحس بالخوف فأطرق برأسه متفكراً ثم قال بعد ذلك:

ـ الفقهاء أعداء الصيادين.. لقد حذرتك منهم منذ البداية، إنك لا تستطيع أن تنصت إليهم دون أن يشلك الخوف.. انظر لماذا

تترك ذلك الجحش نصف المقدس يتحدث معك على الإطلاق.. أنت تتظاهر بأنك لا تصدق شيئاً مما يقوله لك، لكنك تظل تتذكر خرافاته بطريقة ما وتحلم بأبناء الزنا الموتى، وتراهم يلوحون لك أيضاً.. لماذا لا تبتعد عنه؟..

وهز الزنجي كتفيه ولف معطفه حوله مستشعراً لذعة الريح الشرقي البارد، ثم أطلع رأسه وشرع يراقب انطلاق القارب المتزن في اتجاه الأجراف دون أن يغير وجهة سيره.. كان ما يزال يملك كثيراً من الوقت، وكان ينتظر غروب الشمس لكي يتجنب الظلال الخادعة على قاع البحر، وقد عاد فأسند رأسه فوق حاجز الدفة ولف ياقة معطفه حول وجهه مستسلماً لانزلاق القارب الرتيب.. وعندما تذكر السلاحف قال من تحت معطفه:

ـ إنهن عاهرات البحر.. هذا ما أعرفه عنهن.. أعني ماذا؟ تلك المخلوقات البربرية التي تغرس حربونك في عنقها وتتركها مقلوبة على ظهرها في الشمس طوال النهار ثم تكتشف أنها ما تزال تتنفس وتنظر إليك بعينيها الفظيعتين.. يا بديع الخلق، إنها تتنفس مثل الناس وبوسعها أن تستلقي على ظهرها وتظل تراقبك بلا انقطاع حتى تجعلك تتمنى لو أنك تستطيع أن تخنقها بيديك.

كان الزنجي يعني سلحفاة معينة بالذات.

وكان قد أغمض عينيه تحت معطفه الشتوي ورأى قاربه المدفون في أكوام التفن على شاطىء قريونس، ورأى العاصفة والزبد الفضي على قمم الموج ورؤوس النخيل المتمايل على طول القرى، ثم فتح عينيه مستسلماً لحلمه المقزز ورأى سلحفاته تتململ في وسط القارب مقلوبة على ظهرها فيما كان الماء المالح يحرق جراحها العميقة الغور.

لقد فاجأته العاصفة إذ ذاك في وسط النهار الخريفي المشرق ومزقت شراعه واضطرته إلى أن يلج بقاربه المياه الضحلة عند الشاطىء ويلتمس ملاذاً مؤقتاً بين أكوام التفن المتيبس آملاً أن تهدأ خلال الليل.. وقد فعل كل ما في وسعه لكي يسهل أمر الانتظار ويحتفظ بقاربه في ملجأ من مياه المطر وعندما سقط رأسه على صدره من فرط التعب وانتفض مذعوراً على حافة الدفة كان الفجر قد لاح في السموات الرمادية العاصفة، وكان البحر يتقدم باطراد إلى جانب الطريق العام على بعد نصف ميل من الشاطىء، وكانت السلحفاة تراقبه مفتوحة العينين من وسط القارب.

ثم ازداد هطول المطر خلال الصباح وبدأ الموج يخترق أكوام التفن في حزم مائية مريبة الارتفاع وبذل الزنجي جهداً خارقاً لكي يحتفظ بسيطرته على القارب، ويمنع السلحفاة من أن تكسر عنقها على خشب الدفة.. وعندما مدَّ يده في إحدى المرات لكي يدفعها إلى الوراء سمع فكيها ينطبقان فجأة على غير هدى.. ثم وصلت إلى أنفه رائحة الكهف العظمي المفتوح أمامه على مصراعيه ورفع رأسه مصعوقاً.. وتذكر لأول مرة منذ بدء العاصفة أنه محجوز دون أن يدري مع وحش جريح ممتلىء بالعداء والغضب في قارب طوله أربعة أمتار.

ولقد أحس إذ ذاك تجاهها بالرهبة..

ثم شرب بقية زجاجة النبيذ التي ادخرها في اليوم السابق وتذكر أنه قرر أن يذبحها الآن فسوف تتعفن قبل أن يصل بها إلى الميناء.. ثم استجمع شجاعته ورماها ببعض النعوت وقرر أن ينتظر حتى تهدأ العاصفة.. وعند الظهر كان أثر النبيذ قد ضاع.. وكان الزنجي يجلس واجماً على حافة القارب ويراقب العينين القبيحتين

اللتين ظلتا مثبتتين فوق وجهه بصرامة دون أن تطرفا مرة واحدة.

ثم ازدادت حدة الريح القارصة وطفق الزنجي يرتجف مستشعراً جوعه المقزز. وعندما مدَّ يده متردداً وأطلع كسرة الخبز من جرابه أغمضت السلحفاة عينيها لأول مرة وفتحتهما بعد ذلك ببطء فيما كان الموج يرفعها فجأة ويدنيها من حافة الدفة.

لقد كانت جائعة أيضاً وكانت تتسول كسرة الخبز بعينيها، وقد راقبها الزنجي مصعوقاً ثم نهض واقفاً حتى كاد أن يسقط في البحر وطفق يلعنها بأعلى صوته.. وعند العصر ارتكب تجاهها حماقة صبيانية لم يكن بوسعه أن ينساها طوال حياته قط. لقد رفع قميصه فجأة وبال فوق رأسها في محاولة مزرية للتغلب على ذعره باختراع نكتة ما ثم فغر فمه وشرع يرتجف من التقزز عندما رآها ترفع رأسها الجريح وتلعق بوله بصبر دون أن تحيد بعينيها الصارمتين عنه. وبعد ذلك قال لها معيراً:

ـ الملكة تلعق بول العبد.. الملكة المسحورة تنام على ظهرها وتلعق بول العبد..

ثم تذكر سلوكه المشين وغمره شعور مفاجيء بالرهبة.. ومدت السلحفاة عنقها تحت وابل المطر وعثرت على المجداف الذي وضعه الزنجي في طريقها لكي يمنعها من الانزلاق في اتجاه الدفة.. ورفع البحر يده في العتمة وقال للصياد:

ـ استيقظ إنها تزحف في اتجاهك..

وفتح الزنجي عينيه عبر خيوط المطر وسمع مجدافه ينكسر عند فوهة الكهف العظمي.. ثم استشعر الأنفاس الكريهة تلفح قدميه. ورفعهما على مهل فيما كانت السلحفاة تنزلق برأسها على خشب الدفة.. وإذ ذاك دمعت عيناه.. إنه لم يعد يدري الآن لماذا دمعت

عيناه.. ولكنه يعرف أنهما كانتا ممتلئتين بالمياه المالحة اللاذعة الطعم عندما رفع حربونه في تلك الليلة العاصفة وغرسه في عنق سلحفاته ثم اتكأ فوقه بثقله وطفق يجأ الجرح العميق الغور حتى رآه ينسرح على الجانبين عبر خيوط الدم اللزج، ورأى الرأس ينزلق ببطء ويسبح مبتعداً في مياه المطر.. كان يقاتل دفاعاً عن نفسه ضد ذلك الرأس وحده.. لكن حربونه الغبي قتل السلحفاة..

وقال الزنجي من تحت معطفه فيما كان ينزلق مع التيار الهادىء عند حافة الجزيرة:

ـ لقد كانت عاهرة حقيقية، وقد نالت ما تستحقه من العقاب..

ثم تذكر أنه خسر بدوره حصيلة رحلته من الصيد.. وأنه عاد إذ ذاك إلى السوق خالي الوفاض واضطر إلى أن يغرق قاربه في المرفأ يوماً كاملاً لكي يزيل منه آثار الدماء، وهزَّ كتفيه وقال بأناة:

ـ لقد نال كل منا ما يستحقه من العقاب، ولكن السلحفاة لم تحص خسائرها.

ثم أزاح معطفه جانباً وشرع يراقب الشمس الغاربة.. كان قد أحصى خسائره بدوره، وكان قد اكتشف أنه لقي هزيمته ودون أن يدري عندما كان خصمه يستلقي على ظهره في العراء ويقاتل بعينيه وحدهما، لكنه لم يكن يحب أن يعترف بذلك دفعة واحدة.. لقد تعود أن ينساه ويشيح بوجهه في اتجاه الشمس وينتظر واجماً حتى يسمع صوت السلحفاة تعترف أولاً بأنها نالت ما تستحقه من العقاب، وأنها لم تجن شيئاً من وراء سلوكها الطائش تجاهه سوى أنها خسرت كل ما لديها.. وقد انتظر صوتها إذ ذاك أيضاً، وسمعه أول الأمر عندما كان يراقب الشمس الغاربة، وسمعه

مرة أخرى بعد أن دار بقاربه وراء الأجراف وانطلق يجدف في اتجاه حافة الجزيرة.. وتذكر عينيها الوقورتين، وتذكر أنها تسولت منه كسرة الخبز، وأنه بال فوق رأسها.

وعندما رفع مجدافيه من البحر، وفك حربونه من جانب القارب لكي يفحصه لآخر مرة كانت السلحفاة قد نالت كفايتها من الاذلال، وكان الزنجي يقول لها مواسياً أنها التزمت في تلك الليلة سلوك الملكات وماتت مرفوعة الرأس، وأنه خسر أيضاً نصيبه من المعركة، وتصرف إذ ذاك مثل طفل أخرق وبال فوق رأسها لأنه كان خائفاً منها إلى حد لا يطاق.. ثم رفع عينيه إلى السماء وقال لله بصوت عال:

ـ هذا وجه الحق.. لماذا أكذب عليك؟.. لقد كنت خائفاً منها إلى حد لا يطاق!..

وفي اللحظة التالية كان كل شيء على ما يرام.

وكان الزنجي قد صفى حسابه القديم للمرة الألف، وانطلق يمسح حافة الجزيرة بحثاً عن فرنكاته الثلاثة التي ستدفعها له صاحبة المطعم مقابل السلحفاة.. لم يكن يبحث عن السلحفاة نفسها، ولم يكن يعتقد أن ذلك يليق بصياد حقيقي مثله.. لقد تعود أن يخرج إلى البحر لكي يحضر للناس ما يرغبون في استبداله ببعض النقود، وتعود أن يحضر لهم ما يحتاجونه بالضبط ويتركهم يضعونه في سلالهم ويولونه ظهورهم بعد أن يطرحوا أمامه فرنكاتهم على اللوح المرمري.. كانوا يطرحون دائماً فرنكات حقيقية تحمل رأس موسوليني الخالي من الشعر.. وكان الزنجي يعتقد أنهم يصطادونها بطريقة ما كما يصطاد هو سلاحفه ويحضرونها مثله إلى سوق السمك، لكنه لم يكن يعرف كيف يفعلون ذلك، ولم يكن

يعتبرهم صيادين حقيقيين على أي حال.

وهدأ الريح الشرقي فجأة وبدأت النوارس تطير عائدة إلى القرية على ارتفاع شاهق ونظر إليها الزنجي ذات مرة من فوق كتفه، ونظر إلى الشمس الغاربة، ثم غمس حربونه في الماء وقال له مشجعاً:

ـ سنعود نحن أيضاً إلى بيتنا.. إننا نحتاج إلى بعض الوقت، ولكننا سنعود على أي حال.. انظر.. إن فرنكاتنا الثلاثة تنتظرنا منذ العصر تحت ذلك الجرف..

ثم جدف بقاربه متعمداً أن يظل قرب الحافة لكي يتجنب منطقة التيار، ورفع سلة الخيوط إلى مقدمة القارب ودار بيسر فوق الأجراف.. وإذ ذاك قال له أحد ما من قاع البحر:

ـ لقد كان مطراً غريباً منتناً، أعني هذا الذي هطل خلال الصباح..

وأشاح الزنجي بوجهه وتظاهر أنه لم يسمعه.. كان يعرف أنه لا يملك سوى فسحة قصيرة من الوقت قبل أن يحل الظلام وتصبح الرؤية متعذرة، وكان لا يريد أن يضيع المساء الهادىء الأضواء في الشجار مع الأصوات القادمة من قاع البحر.. وقد سارع فربط حربونه في مجدافه الإضافي لكي يضمن أنه سيعرف مكانه حتى إذا غاصت به إحدى السلاحف ثم أقحمه في أحد الأجراف وقال له مشجعاً:

ـ الماء دافىء في القاع.. هل تشعر بالخوف؟.. انظر.. أنا معك هنا.

وفي اللحظة التالية انزلق الحربون من يده واصطدم بحافة

الجرف الناتيء على سطح الماء محدثاً رنيناً مضحكاً، والتفت الزنجي حوله مستطلعاً ثم رفعه مرة أخرى وأعاده في اتجاه القاع، عندها سمع الصوت الغامض يقول له بأناة:

ـ مسعود الطبال صياد قديم يطعن الصخور بحربونه، مسعود الطبال لا يخاف من الصخور.. هل رأيت ما حدث؟ لقد طعنها في صدرها بالضبط..

وابتسم الزنجي خلسة رغم أنفه وشرع يراقب الكهف متظاهراً بأنه رأى شيئاً ما يتحرك في العتمة، ثم سحب حربونه وأقحمه تحت الجرف دون ثمة مبرر فيما ضحك أحد ما بجانبه وقال له معيراً:

ـ ماذا دهاك.. لماذا تلوح بحربونك على غير هدى هل اعتراك الخوف إلى هذا الحد؟..

ونظر الزنجي فجأة من فوق كتفه، ورأى السحب المعلقة على سطح المياه ورأى فجوات السماء العميقة الزرقة ومواشير الشفق الأحمر التي تركتها الشمس وراءها، وثبت عينيه عند مغرب الشمس وقال لها بصوت عال:

ـ أنا خائف مثل البنت.. هذا كل ما في الأمر.. ثم سحب حربونه وبصق في البحر.

كان يعرف أن السلحفاة التي طفت عند العصر ما تزال في مكان ما داخل منطقة الأجراف، وكان يعرف أنه يستطيع أن يرغمها على مغادرة مخبئها ويطاردها إلى حافة الجزيرة لكي يقلبها في المياه العميقة إذا أصبح بوسعه أن يستعمل حربونه استعمالاً مجدياً في البحث عنها، لكنه لم يستطع أن يركز ذهنه قط.. لقد

ظل الصوت الغامض يطارده بدوره، وظلَّ شيء ما يقول له في الداخل أن ذلك الصوت يخص «شبح» الصبي الذي لقي حتفه في منطقة الأجراف..

وفجأة وضع الزنجي رأسه بين يديه، وفعل شيئاً لم يفعله في حياته من قبل خلال رحلة صيد سوى مرة واحدة.. لقد أغمض عينيه وانطلق يقرأ آيات الكرسي بصوت عال مستشعراً دبيباً مقززاً يزحف في عروقه.. كان قد قرأها لأول مرة عندما كان يعمل بالأجر على قارب صياد عجوز في بنغازي، وكان العجوز قد زعم أن المنطقة التي اضطرا إلى قضاء الليل فيها مسكونة.. وأن الشبح تعود أن يظهر على سطح الماء ويشرع في العويل.. ثم قرأ مقدمة الآيات بصوت مرتجف.. لكنه لم يكن يحفظها كلها، وكان الزنجي قد قرأها له إذ ذاك لمجرد الرغبة في أن يترك لديه انطباعاً مؤثراً أما الآن فقد كان خائفاً.. وكان خوفه يتحدث إليه بصوت مسموع.

وأعاد الزنجي قراءة الآيات مرة أخرى فيما كان يعيد حربونه إلى منطقة الأجراف، ثم اكتشف انه ما يزال يستشعر الدبيب المقزز في عروقه، وتوقف عن القراءة برهة وقال بعد ذلك:

ـ هذا ما توقعته.. ماذا دهاك الآن.. هل يخاف بغل فظيع مثلك من الغولة؟..

وفي اللحظة التالية رأى وجه الصبي في الماء..

لم يكن ذلك وجه الصبي حقاً بل كان مجرد انعكاس لسلة الخيوط المصنوعة من أعواد القصب، وكانت طافيتا الصنارة قد بدتا في وسطها مثل عينين مفتوحتين عبر حركة القارب على وجه الماء، وقد رآهما الزنجي تتطلعان إليه من القاع.. وتصلب في مكانه

محدقاً بذعر.. ثم اكتشف الثقوب الضيقة في انعكاس سلة الخيوط وأطلق ضحكة قبيحة خالية من العزاء..

كان يعرف أنه قد بدأ يفقد سيطرته على خوفه، وكان ذلك قد أثار ذعره أكثر من سواه، فقد تعود أن يستشعر دبيب الخوف في كثير من المرات وتعود أن يخوض في الشواطىء الخالية ويتذكر ما سمعه من الصيادين عن الأشباح والجان والسلاحف المشبوهة، ويلتفت وراءه بين حين وآخر مغالباً شعوره بالرهبة..

لقد كان ذلك سلوكاً شائعاً بين معظم الصيادين، وكانت قصقص الأشباح تصل إلى المرفأ كل يوم في قوارب الصيد كما تصل صناديق السمك نفسها، لكن الزنجي لم يكن يخاف من الأشباح حقاً.. ليس على الأقل إلى حد أن يقرأ آيات الكرسي أو يرى سلته تراقبه بعينيها..

وسحب حربونه مرة أخرى إلى سطح الماء وفحصه واجماً ثم أقحمه بين الأجراف وشرع ينزلق وراءه بقاربه مستعملاً مجدافاً واحداً عندما قال له الصوت الغامض من القاع:

ـ هل تعتقد أن ذلك يجديك نفعاً.. اسمع.. ألم تر المطر المنتن الرائحة هذا الصباح؟.. لقد كان يريد أن يحذرك منا..

وأشاح الزنجي بوجهه ولم يستمع إليه، فيما انزلق الحربون على فوهة أحد الكهوف وشرع يترنح بعنف، وقال الصوت الغامض بوضوح أكثر:

ـ لماذا لا تقرأ آيات الكرسي أيها الصياد.. هل كان الوجه الذي رأيته في الماء سلة الخيوط حقاً؟.. اسمع من أدراك؟.. أنت مجرد عبد بسيط مثل أي دابة، إنك لا تعرف شيئاً على الإطلاق سوى مطاردة السلاحف، وكان عليك أن تسأل الفقي.

ثم أصبح الصوت حقيقة واقعة.. وظهر فجأة على سطح الماء وراء القارب، وقال للزنجي:

ـ التفت هنا.. انك تستطيع أن ترى كل شيء بعيني رأسك.. هل تذكر جثة القرش المعفنة وراء الخليج.. إنه لم يمت بفعل عبوة ناسفة، وأنت تعرف ذلك.. لماذا لا تلتفت الآن؟..

لكن الزنجي لم يلتفت..

كان يتابع حربونه بين الأجراف واجماً، وكان قد بدأ يكتشف أن خوفه المقزز لم يعد مجرد شعور جامح مثير للرهبة وحدها بل للخجل أيضاً، ولقد استشعر اندفاع الدم الطفيف إلى جبهته، وأحس بها تلتهب تحت وطأة الاندفاع في عروقها ومد عنقه إلى الأمام مترقباً وجه امرأته في صفحة الماء.. كانت تخف لنجدته دائماً عندما تلتهب جبهته بالخجل، ثم قال لها بصوت يشبه الهمس:

ـ هل تعرفين ما حدث؟ إن عبدك المضحك خائف من الغولة.. أعني من سلة الخيوط.. انظري بنفسك.

وتعاظم الصوت الغامض وراء ظهره مباشرة وقال له نكاية به:

ـ مسعود الطبال ليس خائفاً من سلة الخيوط.. هذا وجه الحق.. مسعود الطبال خائف من شبح الصبي.. لقد رآه كل ليلة في المنام، ورآه يلوح له ذات مرة. إن الموتى لا يظهرون في الأحلام عبثاً.. هذا ما يقوله مسعود الطبال، ويقول أيضاً إن الصبي جاء وراءه إلى الخليج وقتل سمك القرش..

وفي اللحظة التالية رأى الزنجي فرنكاته الثلاثة تسبح برزانة عند فوهة الكهف، واعترض طريقها بحربونه لكي يرغمها على أن تتجه نحو منطقة المياه العميقة قبل أن يفطن لما حدث، ثم انزلق وراءها

بقاربه ونسي الصوت الغامض، ونسي سلة الخيوط والمطر الصباحي المنتن الرائحة، وبات يستشعر حركة التيار البالغة الرتابة فيما كان يرتاده بطرف حربونه على يمين السلحفاة..

كان يعمل بهدوء متناه..

وكان مجدافه الوحيد يغرف وجه المياه مثل ريشة ناعمة الملمس دون أن يحدث صوتاً مسموعاً.. وقد رأى سلحفاته تسبح مذعورة فوق الأجراف المغمورة في المياه الضحلة، ثم رآها تخوض في منطقة الأعشاب وتنطلق في اتجاه القاع الأبيض عند حافة الجزيرة، وقال لها مشجعاً:

ـ ليس ثمة ما يدعو إلى الذعر كل شيء سينتهي على خير.. هل سمعت قط بصياد زنجي اسمه مسعود الطبال؟.

وفجأة أدار وجهه ورأى ذكر السلحفاة يتبعها تحت السطح مباشرة.

كانت البقعة الداكنة الصفرة في وسط رأسه تلمع عبر عتمة المياه مثل طبق مدور من الذهب النقي، وكانت أساطير الصيادين تزعم أن سيدنا يونس قد تناول عشاءه ذات ليلة في ذلك الطبق فيما كان ذكر السلحفاة يمخر به عباب البحر لكي يحمله إلى الشاطىء بعد أن خرج من بطن الحوت.

واعترض الزنجي طريقه بمجدافه وقال له بود:

ـ ماذا تريد؟ هل انكسر قلبك من الحب.. عد إلى يسار القارب.. إنها ستنتظرك في المياه العميقة..

كان يعرف أنه يستطيع أن يصيبه بحربونه إذا جعله يبتعد عن الجرف ويسبح على يسار القارب، وكان قد اعتبره ثلاثة فرنكات

إضافية.. لكن ذكر السلحفاة لم يستجب له.. لقد تبعه لبعض الوقت تحت وطأة ذعره ثم خاض في منطقة الأعشاب ودار في الاتجاه الآخر وانطلق إلى عرض البحر فيما كان الزنجي يدور بقاربه ويعترض طريق سلحفاته عند حافة الجزيرة..

ثم انزلق الحربون في المياه الفضية البياض.. ورأته السلحفاة يسقط من السماء وينطفىء في الماء البارد محدثاً فقاقيع مدورة دقيقة الرؤوس، ودارت على أعقابها في محاولة يائسة للفرار، ثم أحست به يلمس عنقها وشرعت تتخبط على غير هدى تحت وطأة ذعرها المريع فيما قال لها الزنجي مشجعاً:

ـ تماسكي يا سيدتي.. ليس ثمة ما يدعو إلى اليأس.

وفي لحظة بسيطة خالية من العمق كانت السلحفاة تأخذ طريقها إلى السطح مفتوحة العينين وكانت المياه الفضية البياض تنسرح ببطء على جانبيها وتعود إلى البحر حاملة خيوط الدم الشاحبة في وداع حافل باليأس.. وتفحصها الزنجي بعينيه مستشعراً ترقباً مشوباً بالقلق، ثم قال في ذات نفسه:

ـ إنها ليست كبيرة الحجم ولكنها تساوي الثلاثة فرنكات على أي حال.. ماذا تريدني أن أفعل.. إن المرء لا يستطيع أن يزن سلحفاته قبل أن يصطادها..

ثم قطرها وراءه عبر الممر العميق بمحاذاة اللسان وتذكر الصوت الغامض الذي ظل يطارده طوال المساء، وأحس تجاهه بالخجل، وسمع نفسه يقول للصبي:

ـ هذه واحدة.. لقد انتهى أمرها في غمضة عين، هل رأيت ما حدث؟.. إن والدك نفسه لا يستطيع أن يقلب سلحفاة متوسطة الحجم في نصف هذا الوقت، ولكن عمك العبد صياد من نوع

آخر.. هل كنت تريده أن يأخذ بثأرك؟..

وبعد ذلك أطرق برأسه وقال في هدوء:

ـ أنا لست عمه، ولا يهمني أن آخذ بثأره..

كان يجدف بسرعة ملحوظة رغم إحساسه بالتعب، وكانت سلحفاته تنزلق وراءه فوق سطح الماء مقلوبة على ظهرها دون حراك، وقد فعل كل ما في وسعه لكي يسهل رحلتها، لكنه كان يعرف أنها تعاني ألماً قاهراً كلما قفز القارب فجأة أمام المجدافين، وكان يتمنى لو أن المزارع الرومي الأعرج رضي أن يبيع له محركه..

وفي لحظة ما تذكر الزنجي قرية الصيادين، وتذكر المطعم الجديد والقسيس الجاسوس وعقد البيع الذي أثار شكوك الفقي.. ثم تذكر الفقي بوضوح أكثر، ورآه عبر عتمة المساء يضع يديه فوق صدره ويقول له على مسمع من الصيادين:

ـ السلاحف عندنا لا تباع لأصحاب المطاعم، ذلك يحدث في بنغازي فقط.. أما عندنا هنا فإن السلاحف لا ينالها أحد بسوء.. ماذا يفعل عبد زان مثلك في سوسة، هل جئت لكي تلحق بنا الدمار؟..

وهزّ له الزنجي رأسه عبر عتمة المساء، وحدَّق في الفراغ برهة ثم اعتراه الوجوم طوال الساعات التالية، وظل يجدف مطرق الرأس.. وعندما اكتشف وجومه الطويل في نهاية المطاف هزَّ كتفيه وقال بصوت عال:

ـ ماذا يهمني من أمره.. إنه مجرد درويش.. دعه يقول ما يشاء.. أعني هذا وجه الحق، إنني لا أزمع أن ألحق الدمار بأحد، ولا أعرف أن السلاحف حوريات مسحورة، وسوف أقول هنا إنه

إذا انشق البحر ذات يوم وطلع لي جني حقيقي كامل الهيئة وقال لي:

ـ اسمع أيها العبد.. إن السلاحف حوريات مسحورة أو مرابطة وأن الله يطلب منك أن تكف عن صيدها، فسوف أكف عن صيدها.. هذا وجه الحق.. وأنا أقوله هنا.

وفجأة ترامى إلى سمع الزنجي هدير محرك أحد القوارب العائدة، ثم سمع الصياد يغني بأعلى صوته.. وأنصت إليه برهة مستشعراً نسائم الليل الخريفي البارد، ثم قال له بصوت مسموع:

ـ أنا أيضاً أشعر بالخوف أيها الصياد، ولكنني لا أستطيع أن أغالبه بالغناء مثلك.. إن هذا المجداف يستهلك قواي.

وتذكر إذ ذاك الرومي الأعرج الذي رفض أن يبيع له محركه.. وتذكر الفقي وقطعة الأرض والسلحفاة المستلقية على ظهرها وراء قاربه، وشعر تجاههم بالكره وقال لهم معيراً:

ـ سلطانة البحر تتبع عبدها مثل الكلبة.. سلطانة البحر مربوطة من عنقها بحبل.. انظروا بأنفسكم يا أبناء الزناء.. إن البحر يقف بجانب الصياد..

ولكن البحر لم يقف بجانبه في اليوم التالي.. لقد انحاز ضده في صف السلحفاة..

ونهض خلال الليل تحت وطأة الريح الشمالي المثقل بالمطر واجتاز الحاجز الصخري ومدخل الخليج والأجراف الناتئة على الشاطىء ثم مد ذراعيه الباردين عبر العتمة وشرع يتلمس طريقه في اتجاه الساحة الرملية.. كان البحر يبحث عن سيدته الأسيرة في قرية الصيادين، وقد وجدها مقلوبة على ظهرها فوق مجدافي

الزنجي بين نباتات الديس ووجد أحد الكلاب الضالة يدور حولها عاقداً حاجبيه في فضول. وعندما ركع البحر العظيم على ركبتيه وانحنى لكي يحملها فوق كتفه ويعود بها إلى كهفها المائي، نبح الكلب المبتور الأذنين في وجهه وقفز إلى الوراء مبدياً تقززه من ملمس المياه.

كانت الساحة الرملية تخص الكلاب والصيادين، وكان البحر العظيم والملكة العظيمة يلتقيان فوقها مثل لصين غريبين بين نباتات الديس الملوثة ببول الكلاب وبقايا القمامة وعلب الصفيح الصدئة والقواقع المتيبسة وفضلات الماعز الذي يتسكع طوال النهار على طول منطقة الطحالب. كانا يلتقيان هذه المرة في أرض الغربة.. وقد نبح الكلب في وجههما..

ثم بدأت العاصفة..

وتوارى الحاجز الصخري في المياه، وتوارى مدخل الخليج، وفك أحد القوارب رباطه وانطلق يترنح في اتجاه الشاطىء، فيما كان البحر يرتاد حافة الطريق العام برؤوس أصابعه البيضاء، وعند منتصف الليل ارتفعت الأمواج فوق التلة القائمة بين نباتات الديس وخرج أحد الجرذان من جحره المغمور في المياه ونفض رأسه باستياء، ثم وقف ينظر حوله مدهوشاً فقد خطر بباله أن البحر العظيم جاء لكي يسرق كسرة الخبز التي خبأها في سفح التلة.. وعندما سبح بعد ذلك بجانب المجدافين ورأى السلحفاة المربوطة بالحبال تلوح بزعانفها في الهواء استدار عائداً على الفور وقال في ذات نفسه:

ـ هذا الوحش الجهنمي في مقابل كسرة الخبز.. أعني هذه ليلة مضحكة.

ورفع البحر أصبعه ونقره على أنفه.. كان أصبعاً ثلجياً مالحاً، وكان الجرذ يدفع ثمن وقاحته تجاه الملكة الأسيرة وقد بادر فانسحب في اتجاه رأس التلة وشرع يمسح وجهه بيديه مسلماً بضياع كسرة الخبز، فيما بدأ المطر في الهطول، وارتفع صراخ النوارس على طول الخليج الزبدي وطارت أول الأمر في قلب العاصفة على غير هدى ثم عادت فتجمعت فوق الساحة الرملية وانطلقت في سرب واحد صوب قرية الصيادين.

وتململت السلحفاة فوق المجدافين وأدارت رأسها بيأس في اتجاه الخليج عندما زحف أحد السرطانات الرملية الصفراء فوق عنقها وتسلق بطنها لاجئاً من الماء ثم مدَّ مقبضيه العظمين وشرع يتحسسها بحذر.. كان ملمسه خشناً بطريقة تثير التقزز، وكان يفوح برائحة الرمال الرطبة وقد لطمه البحر العظيم على وجهه لكي يبعده عن السلحفاة، لكنه أنشب مقبضيه عند حافة زعانفها واحتمل اللطمة في صبر دون أن يتحرك من مكانه.. عندئذٍ لطمه البحر العظيم مرة أخرى وألقى فوق رأسه إحدى العلب الصدئة، ثم شرع يكتسحه بلا هوادة حتى أزاحه جانباً ورماه مقلوباً على ظهره عند طرف الحبل الملتف حول المجدافين. كان سكان الساحة الرملية يقضون وقتاً حرجاً..

ودار الجرذ المحاصر فوق التلة على عقبيه ودفن وجهه في الرمال مستشعراً جوعه المهين، ثم تذكر أنه سمع من كبار السن أن الله يدلِّي أحياناً حبالاً من السماء لكي يطعم عباده الجياع، ورفع رأسه غير مصدق، ورأى مرساة الزنجي التي تركها عند رأس التلة، ورأى الحبل الأبيض المدهون بالشحم يمتد تحت أنفه إلى المجدافين وفتح عينيه على اتساعهما وقال للحبل بصوت عال:

ـ الإيمان رأس الفضائل، هذا كل ما في الأمر.

ثم مد عنقه وشرع يفحص عشاءه السماوي..

وزأر الريح الشمالي على أبواب البيوت في قرية الصيادين.

وفغر الزنجي فمه فيما كان يغط في نومه عند طرف الوسادة المزينة بهلال فضي، ورأى الصبي ينحني فوق مرساته على رأس التلة مبللاً بمياه المطر، ورآه يفك رباط الحبل، وفتح عينيه مصعوقاً ودقق النظر في وجهه المغطى بالوبر، ثم شم رائحته النتنة وبذل جهداً خارقاً لكي ينتشل نفسه من قبضة حلمه غير المعقول عندما بهره فجأة لون الضوء الباهت الصفرة ورأى امرأته ترفع فتيلة الغاز وتحدق في وجهه ثم سمعها تقول له عبر زئير الريح:

ـ ماذا حدث؟.. لقد كنت تصرخ بأعلى صوتك.. أعني ماذا دهاك هذه الأيام؟..

ورفع الزنجي رأسه ونظر حوله مستشعراً خيوط الضوء المؤنسة، ثم استدار ببطء ورأى امرأته تراقبه حابسة أنفاسها في فضول بالغ، وتمنى لو كان بوسعه أن يركز ذهنه لكي يبحث عن شيء يقوله لها، لكنه لم يكن يملك وقتاً كافياً..

وسألته مرة أخرى:

ـ ماذا حدث؟.. لقد كنت تتشاجر مع رجل اسمه منصور، وكنت تصرخ بملء رئتيك، أعني هل ثمة أحد من الصيادين اسمه منصور؟..

كانت تعرف ذلك الاسم، وكانت تعرف أنه يخص الصبي الذي لقي حتفه في حادثة السلحفاة، لكنها لم تكن تريد أن تتصور أن زوجها يحلم بالصبي الميت، لقد كان ذلك يعني بالنسبة لها

شيئاً آخر متناهي القسوة والقبح.

وقال الزنجي مستشعراً حماقة كذبته اليائسة:

ـ منصورا!.. أجل.. إنه رجل أعرفه.

ثم فاجأه صوت الريح وتكسر الأمواج المنتظم على الحاجز الصخري، وأطرق برأسه وسألها في انكسار:

ـ متى بدأت العاصفة؟.. هل كنت مستيقظة طوال الوقت؟..

وإذ ذاك عرفت امرأته كل شيء.. وعرفت أنه يحلم بالصبي الميت، وأن الله نفسه يتعقبه في الخفاء، وأن الريح المسعور الذي ينفث غضبه في السموات المعتمة طوال الليل قد جاء وراءه لكي يسترد السلحفاة التي أحضرها معه، لكنها لم تكن تعرف على وجه اليقين أن زوجها أحضر شيئاً معه..

وفي لحظة عميقة مليئة بالعذاب والترقب رفعت المرأة الزنجية رأسها وراء مواشير الضوء الباهت الصفرة وقالت لزوجها في صوت بارد خال من الحياة:

ـ العاصفة؟.. أجل لقد بدأت بعد عودتك مباشرة، هل كنت تحلم بالصبي الميت؟..

وأشاح الزنجي بوجهه لكي يتجنب عينيها المضحكتين كان لا يريد أن يتحدث معها، وكان يكره النظر إلى عينيها في العتمة، ثم أحس بيدها تسقط فوق كتفه، وسمعها تقول له ببطء خارق القبح والعداء:

ـ إنه يتعقبك في المنام، أعني الصبي الميت.. إنه يتعقبك كل ليلة ويجعلك تصرخ بملء رئتيك.. هذا ما يحدث لك.. هل تعتقد أنني لا أعرف ذلك؟.. اسمع لماذا تشيح بوجهك عني؟..

أنا لست عدوتك.. هل أنا عدوتك؟.. إنني أقاسمك الماء والملح، وليس بوسعك أن تخفي عني شيئاً.. وأنا أقول لك إن الصبي الميت يتعقبك، وأن هذا الريح جاء في أثرك لأنك أحضرت سلحفاة أخرى من الجزيرة.. هل أحضرت سلحفاة أخرى من الجزيرة؟..

وأدار الزنجي وجهه ورآها تراقبه حابسة أنفاسها مثل كلبة مدربة تنتظر أن يرمي لها سيدها عصاه لكي تجري في أثرها، وأدرك إذ ذاك أنه يكرهها، وأنه كرهها دائماً طوال حياته.. وكره السلاحف والعاصفة والصبي ومطعم الرومية والصيادين، وكره البحر أيضاً، وأغمض عينيه مستشعراً وحدته الهائلة وقال لها في هدوء:

ـ ماذا أحضرت من الجزيرة؟.. سأقول لك.. لقد أحضرت ملكة جنية مسحورة.. هل بوسعك أن تصدقي ذلك؟.. أنا أقسم لك أنها ملكة جنية مسحورة، وأقسم لك أيضاً أنني رأيت تاجها الذهبي بنفسي.. وقد طعنتها في عنقها بالحربون.. هذا ما فعلته بها.. لقد اخترقت عنقها المسحور بحربوني..

وتراجعت امرأته إلى الوراء لكي لا تطولها يده.. كانت تعرف أن الغضب قد أعماه، وأنه يعد خطته ليصفعها على وجهها، لكن الزنجي لم يكن يمتلك خطة من أي نوع، لقد كان يمتلك قصة ملهبة للخيال وكان يستمتع بروايتها، وقد عاد فأطلق ضحكة هائلة بدون مبرر وقال بعد ذلك:

ـ إنها لم تبد أية مقاومة، أعني تلك الزانية المسحورة، لقد اخترق الحربون عنقها كما يخترق كوماً من الزبدة ثم قلبها على ظهرها مثل أي زانية.. اسمعي.. هل رأيت قط سلحفاة مقلوبة على ظهرها؟.. إن ذلك يستطيع أن يقتلك بالضحك..

وقالت له امرأته من وسط الغرفة:

- كف عن هذه الحماقة.. ما الذي يدعو عبد مثلك إلى الضحك؟..

وتذكر الزنجي ذكر السلحفاة، وتذكر أنه سبح بجانبه على طول منطقة الأجراف، وقال ضاحكاً:

- وكان زوجها يتبعها.. هذا وجه الحق.. لقد جاء وراءنا من منطقة الأجراف وسبح بجانب القارب.. هل بوسعك أن تصدقي ذلك؟ أعني سلطان البحر نفسه الذي يحمل طبقاً ذهبياً فوق رأسه سبح بجانب القارب على طول منطقة الأجراف وقد أخبرته أنها ستنتظره في المياه العميقة، وطلبت منه أن يجرب حظه في إنقاذها.. لكن السلطان ابن الزنا فضل أن يستدير في الاتجاه الآخر وينفذ بجلده إلى عرض البحر.. لقد عرف أن زوجته المسحورة لا تستحق هذه المغامرة..

وقالت له امرأته معيرة:

- هذا كذب.. هذا مجرد كذب محض من جانبك.

ولكن ذلك لم يكن كذباً كله.. لقد ظهر ذكر السلحفاة حقاً بجانب قارب الزنجي وتبعه لبعض الوقت ثم استدار على عقبيه وقصد عرض البحر، غير أن ذلك في الواقع سلوك لا غبار عليه، فذكور السلاحف لا تتبع إناثها في موسم الخريف ولا تعيش معها أيضاً..

وكان الزنجي يعرف ذلك، لكن امرأته لم تكن تعرفه، وقد أدهشها أن يتخلى سلطان البحر المهيب السمعة عن زوجته لكي تموت وحدها، ويلوذ بالفرار على هذا النحو المزري واستشعرت تجاهه ازدراء خفياً مفاجئاً، وقالت مرة أخرى:

ـ هذا كذب.. هذا مجرد كذب محض من جانبك.

وبادرها الزنجي بضحكة قبيحة حافلة بالشماتة.

كان يعرف أنه حقق لتوه نصراً نهائياً، وكان لا يريد أن يمنحها فرصة لاسترداد أنفاسها، وقد عاد ففتح ذراعيه متظاهراً باليأس وقال لها ببطء:

ـ هذا ليس كذباً.. أنا أستطيع أن أقسم لك على أنه ليس كذباً.. ماذا تريدينني أن أفعل أكثر من ذلك.. لقد سبح ذكر السلحفاة بجانب القارب حاملاً طبقه الذهبي فوق رأسه، ثم استدار على عقبيه ولاذ بالهرب تاركاً امرأته البلهاء تواجه الموت وحدها.. هذا ما حدث.. وأنا رأيته بعيني رأسي، وقلت له إذ ذاك إن هذا سلوك لا يليق بسلطان البحر. أعني ماذا بوسعي أن أقول غير ذلك؟..

وأشاحت امرأته بوجهها وشرعت تراقب خيوط المطر عبر فرجة الباب ملتزمة الصمت.. كانت تحس بالوحدة.. وكانت لا تعرف ما إذا كان عليها أن تنضم إلى جانب زوجها أم إلى جانب ذكر السلحفاة، وقد خطر لها أول الأمر أن تقف في صف الحق وتقول لزوجها أن الأمر لن ينتهي عند هذا الحد، وأن ذكر السلحفاة سوف يظل يتربص له طوال حياته أو يتعقبه إلى القرية، لقد كان ذلك ما سمعته دائماً من جميع الصيادين، ولكنها لم تستطع أن تقوله على أي حال. لقد بدا عبر زئير البحر والعاصفة قبيحاً إلى حد لا يطاق..

وقال الزنجي من طرف السرير:

ـ الحربون وحده سلطان البحر.. أعني الحربون والصياد.. ماذا أردت أن أقول لك؟.. أجل.. لقد كان سلطاناً مزرياً لا يساوي

نقلة وقد تخلى عن امرأته وتركني أجرها مقلوبة على ظهرها إلى الساحة الرملية.. اذهبي لكي تريها بنفسك.. إنها مربوطة بحبل بين نباتات الديس.. أليست نباتات الديس مكاناً يليق بملكتك المسحورة الزانية؟

كان يقول ذلك في الواقع لنفسه..

وكان يتمنى لو كان بوسعه أن يضع معطفه فوق رأسه ويخرج على الفور لكي يرى سلحفاته ما تزال حقاً مربوطة بحبل بين نباتات الديس.. فقد رأى الصبي الميت يفك رباطها في المنام.. ورآه يحملها بين يديه ويعيدها إلى البحر ناظراً إليه بوجهه المغطى بالوبر.. لقد كانت السلحفاة تزن أكثر من قنطار ونصف، ولكن الصبي كان يحملها بين يديه..

وفجأة قال الزنجي مختلقاً كذبة رديئة:

ـ شبح الصبي بدأ في الظهور فوق الجزيرة.. لقد رأيته بنفسي هذا المساء..

ثم اعتراه الغضب ولم يعد بوسعه أن يكبح جماح خياله الملتهب، وقال بيأس:

ـ لقد رأيته مرتين.. هذا ما حدث.. وكان يلوح لي بخرقة سوداء، وكانت الدماء تغطي ثيابه، أعني ذلك الكلب ابن الزناء لقي حتفه بطريقة لا تحتمل.. هذا ما حدث، وقد بصقت فوق وجهه وقرأت عليه آيات الكرسي..

ونظرت إليه امرأته عاقدة حاجبيها دون أن تقول شيئاً كانت تعرف أنه يختلق تلك القصة لكي يخفي وراءها قصة حقيقية أخرى وكانت قد تعلمت جميع حيله طوال ثلاثين عاماً كاملة.

وبعد ذلك قال الزنجي دون ثمة مبرر:

ـ السلحفاة محكمة الوثاق.. أنت لا تحتاجين إلى أن تشغلي بالك من أجلها إنها محكمة الوثاق إلى مرساة حديدية ذات أربعة خطاطيف، وإذا استطاع هذا الريح المضحك أن يحركها من مكانها بمقدار عقلة أصبع، فأنا لست صياداً، لماذا لا تعودين إلى فراشك؟.

وزحفت المرأة الزنجية مطرقة الرأس إلى السرير المزين بالكلة الحمراء، ودست وجهها تحت الغطاء الصوفي وبكت خفية في العتمة.. لم تكن السلحفاة تشغل بالها ولم يكن أحد يشغل بالها على الإطلاق، لقد كانت تحس بالوحدة، هذا كل ما في الأمر وكانت تحس بأنها تقف معصوبة العينين على حافة عالم مفرغ لا تعرف فيه أحداً.. كان كل الناس غرباء، وكانوا يتصارعون أمامها دون ثمة سبب واضح ويتشاجرون ويسكرون ويبحرون في قواربهم المضحكة ويضربون نساءهم ويطاردونهن بالحب خلال الليل ويزودون مطاعم النصارى بلحم السلاحف.. ويختتمون البغدادي في الميلود ويشكون من معاملة الطليان ويدعونها باسم الخادم عندما يشعرون تجاهها بالغضب ويفعلون كل شيء في عالمهم المفرغ الذي تقف على حافته معصوبة العينين. ولكنها كانت تقف دائماً وحدها على الحافة وكانت تعرف أنها معصوبة العينين.

لقد اكتشفت ذلك خفية.. إن المرء لا يحتاج أن يفضي بسره لأحد، لقد نظرت حولها ذات يوم واكتشفت في لحظة مفجعة واحدة أنها معصوبة العينين، وأن نور الله الذي لا بد أنه يضيء العالم لا يصل إلى خادم مضحكة مثلها. كان ذلك حقيقة واقعة،

وكان عليها منذ تلك اللحظة أن تعبر العالم بمفردها، وتلزم جانب الحذر، وتضع يدها في يد أولياء الله وتقتفي الأثر خطوة بعد خطوة محاذرة أن تنزلق عن موضع الطريق الأصلي المحاط بآلاف الطرق المزورة. كانت رحلتها مؤلمة ومحفوفة بالمخاطر.. وكانت تعرف أنها لا تستطيع أن تكف عن المشي لحظة واحدة حتى تمد يدها ذات يوم وتتلقف شباك قبر الرسول.. غير أن الطريق كان يلتوي أحياناً بصورة تبعث على الحيرة.. وكانت تضطر إذ ذاك إلى أن تتوقف عن المشي، وتستشعر وحدته المفجعة، وتبكي خفية تحت الغطاء.

ولقد خيل إليها في تلك الليلة أن الطريق التوى على حين غرة بصورة متسمة بالغدر وأن زوجها نفسه ينطلق هذه المرة في اتجاه آخر، ويتركها وراءه على مشهد من العاصفة المريبة والبحر المريب والصبي والسلحفاة منحازاً إلى جانب المرأة الرومية وفرنكاته الثلاثة.. لقد كان يتخلى أمامها عن الأثر الواضح الذي يستطيع المرء أن يقتفيه خطوة بعد خطوة وكان يمضي وحده في طريق آخر ضد العاصفة نفسها، ولم يكن بوسعها أن تعرف على الفور ما إذا كان عليها أن تتبعه، لقد كانت هذه المرة تعاني وحدة حقيقية عند مفترق الطرق. وكانت العاصفة تطرق باب البيت.

ثم أصدر أحد ما حركة خافتة في وسط الغرفة.. وفتحت المرأة الزنجية عينيها عبر فرجة الغطاء ورأت زوجها يرتدي معطفه الشتوي ويلف شالها الأحمر حول عنقه، ثم يتسلل على أطراف أصابعه مهتدياً إلى مكان الباب بخيوط الضوء المتناهية الشحوب، ورفعت رأسها في أثره وشيعته بعينيها المتوهجة بالدموع عبر فرجة الغطاء، كانت تعرف أنه يتعجل معركته اليائسة لأنه لم يعد بوسعه أن يحتمل الانتظار وكانت تفهم ذلك أيضاً..

لكن الزنجي لم يكن يتعجل العراك مع أحد.. لقد كان يريد أن يحكم رباط قاربه، هذا ما قاله لنفسه طوال الليل، وقال أيضاً إن بقاء القارب عند مدخل الخليج سوف يعرضه للاحتكاك بالصخور إذا زادت العاصفة في الصباح، وأن عليه أن يجره إلى المياه العميقة عند الطرف الغربي ويحكم رباطه بمرساته الاضافية بعد أن يحمل السلحفاة إلى صاحبة المطعم.. أجل.. لقد ذكر السلحفاة إذ ذاك عرضاً، وتذكر أنه رأى الصبي يحل رباطها في المنام، ولكن ذلك كان مجرد حلم مضحك، وكان بوسع الزنجي ألا يذكر السلحفاة على الإطلاق لولا أنها كانت مربوطة إلى مرساته الإضافية.. وعندما عبر الطريق العام بعد ذلك واتجه نحو الخليج محنياً ظهره في مجرى الريح، كان قد اختار طريقاً وسطاً بين المدخل وبين مكان السلحفاة عند التلة، وكان يغالب شعوراً جامحاً بأن ينظر إلى الحبل الأبيض المدهون بالشحم الذي ربط به المجدافين..

ثم سمع أحداً ما يقول له بوضوح:

ـ ماذا تريد الآن؟.. ألم تر كل شيء بنفسك؟.. إن حبلك المضحك لم يستطع أن يعوقها عن العودة..

ورفع الزنجي وجهه في مجرى الريح، وحدّق في العتمة الرمادية المبلولة ورأى حبله المقطوع يتمايل عند طرف المرساة ووضع يده فوق عينيه لكي يراه بوضوح أكثر وبعد ذلك أحنى ظهره في مجرى الريح وانطلق يجري في اتجاه التلة. كان يريد أن يلمس حلمه بيديه.. لم يكن يحس بالخوف أو بالغضب، ولم يكن يحس بالدهشة أيضاً، لقد كان حبله مقطوعاً.. هذا كل ما في الأمر، وكان يعتقد أن السلحفاة لا تستطيع أن تقطعه وحدها، وقد أراد أن يلمسه بيديه.. ورآه الجرذ المحاصر فوق التلة ووقف يراقبه برهة

غير مصدق أن أحداً يتعجل الوصول إلى هذا السجن المقفر المحاط بالمياه ثم رآه يصعد التلة واستدار على عقبيه باحثاً عن مخبأ.. وانطلق يقفز مذعوراً حول القمة العارية.. وعندما رفع رأسه بعد ذلك مستسلماً ليأسه من الهرب وجد الزنجي يراقبه واجماً من بين السحب، والتقت عيناهما في نظرة بسيطة خالية من العداء، كانا ينتميان إلى عالم واحد..

وفي اللحظة التالية كان الجرذ قد اكتشف بكبرياء أن أحداً لم يدل له الحبل الأبيض المدهون بالشحم من السموات بل وجده بنفسه خلال ليلة عاصفة حافلة بالصراع والعنف، ومد ذيله الرمادي وراءه ووقف مرفوع الرأس، فيما بدأ الزنجي يكتشف بدوره أن أحداً في القرية بأسرها، بما في ذلك البحر وامرأته وحربونه ـ لم يقف إلى جانبه قط كما وقف هذا الجرذ.. لقد انتظره فوق التلة طوال الليل لكي يقول له:

ـ أيها العبد.. أنا أكلت قطعة من حبلك، هذا ما حدث، ونحن جميعاً نشعر بالجوع..

ثم أدار الزنجي وجهه ببطء، ورأى سلحفاته تلوح بزعانفها عبر نباتات الديس..

وقال لها بصوت عال معترفاً بنصيبه من الهزيمة:

ـ أنا أيضاً لم أنم.. لقد فاجأتني العاصفة بدوري، ولم أكن أعرف أنها ستهب على الإطلاق.. إنه لم يكن بوسع أحد منا أن يتنبأ بتغير الريح..

ثم أضاف بعد ذلك:

ـ أعني سوى الله وحده، ولكن الله لا يفضي بعلمه للصيادين..

كان قد اعتبر هبوب العاصفة على غير علم منه هزيمة جزئية.

وكان لا يهمه أن يعترف بهزيمته إلى هذا الحد ما دام في وسعه أن يخفي الجزء الباقي الذي يضايقه منها. فقد تعمد في الواقع أن يتنبأ بالطقس عندما عاد إلى الخليج خلال الليلة السابقة، ووقف يراقب السحب المنخفضة على الطريق العام بعد أن ترك سلحفاته وراءه، وزعم إذ ذاك أن الريح الشرقي الوضيع الشأن سوف يعود مع شروق الشمس ويواصل لعبته التي بدأها في اليوم السابق لكي يضايق الصيادين على عادته في منتصف الخريف، كان يعرف أن الريح الشرقي لا يخلي مكانه قبل بضعة أيام، وكان يتوقع أن يراه يركض بسحبه المضحكة طوال الأسبوع القادم، ولكن ذلك لم يحدث، لقد هبت العاصفة.. هذا ما حدث، وفاجأته فيما كان يحدق في فتيلة الغاز وسمع امرأته تقول له إنها جاءت في أعقابه..

والتفت الزنجي مرة أخرى ورأى الجرذ الذي أرعبه صوته العالي يركض يائساً على رأس التلة وقال له بأناة:

ـ هل جاءت العاصفة في أعقابك أنت أيضاً؟.. ماذا دهاك؟.. هل تعتقد أنني أريد أن أقطع رأسك في مقابل الحبل؟..

وفجأة خطر بباله أن الجرذ في الواقع صياد مثله، وأنه خرج لكي يحصل على رزقه مثله، وأن العاصفة ربطت بينهما فوق التلة مثل صيادين أخوين.. وانحنى في هدوء وفك بقية الحبل وتركه له وارءه، ثم التقط مرساته وقال له فيما كان يخوض في المياه قاصداً سلحفاته:

ـ هذه حصتك مقابل نوبتك في الحراسة.. ولكن لا تقل ذلك لأحد.. انهم لن يفهموا قط ما الذي يدعو صياد مثلي إلى أن يتقاسم حباله مع الجرذان!..

وبعد ذلك رأى سلحفاته عن قرب، ورأى عينيها ممتلئتين بالرمال ورأى السرطان الرمادي الصغير مقلوباً على ظهره بجانبها وفضلات المعز والعلب الصدئة ومياه البحر الملوثة بالطين.. وتلفت حوله مذعوراً متوقعاً أن يسمع ضحكة أحد ما..

كان صيداً قذراً ومضحكاً من جميع الوجوه.. وكان على الزنجي أن يخفيه فوراً عن جميع العيون، وقد بدأ بالسرطان الرملي الصغير المقلوب على ظهره، وغطى عينيه بقدمه الحافية ثم شرع يضغط فوقه حتى سمعه ينكسر قطعتين..

كان لا يريد أن يترك شيئاً للصدفة.. وكان السرطان الرملي يعرف أكثر مما ينبغي..

وقد سحقه بقدمه ودفن رأسه في الرمال، ثم وضع معطفه الشتوي على حافة الطريق العام وربط حبل المجدافين حول صدره وشرع يجر سلحفاته عبر نباتات الديس زاحفاً على يديه.. كان ذلك الوضع يمنحه فرصة أفضل لكي يغرس أقدامه في جانب الكثبان الرملية ويتكيء بثقله على الحبل، وكان قد غطى عيني السلحفاة بمزيد من الرمل لكي لا ترى أنه مضطر إلى أن يخوض في المياه الملوثة ويقطرها بنفسه مثل البغل.. وقد سحبها أول الأمر بضعة أمتار متوالية بلا توقف، واجتاز بها منطقة الطحالب إلى وسط الشريط الرملي الممتد على طول الطريق، ثم تصلب ظهره كالعادة واضطره إلى أن يفرد ذراعيه ويستلقي على وجهه ساكن الحراك.. وعندما رفع رأسه بعد ذلك ورأى أحد النوارس يراقبه مدهوشاً فوق حافة الطريق العام غمزه بعينه وقال له محاولاً خداعه:

ـ هذه مباراة في شد الحبل أيها الغراب الأبيض.. هل يرضي

ذلك فضولك؟.. إن عملك العبد يقف وحده في طرف.. والبحر يقف في الطرف الآخر وبجانبه الريح والله والأسياد..

ثم لوّح له بيده لكي يهشه وصاح في أثره بصوت عال:

ـ اذهب لكي تنقل ذلك إلى الفقيه.. ماذا تريد هنا؟ قل له إن العبد سقط على وجهه في الوحل، وإنه لا يقف بجانبه أحد..

ولقد تذكر أن الجرذ المحاصر فوق التلة وقف بجانبه ولكنه لم يكن ينوي أن يفضي بذلك السر لأحد.. وكان صديقه الوحيد سراً مضحكاً لا مفر من إخفائه، وكان عليه أن يتظاهر بأنه يقف بمفرده.. وقد عاد فالتفت في اتجاه التلة مستشعراً خيانته، ثم هزّ كتفيه في غضب وانحنى يجر سلحفاته عبر الشريط الرملي حتى تصلب ظهره مرة أخرى واضطره إلى أن يستلقي ساكناً..

كان ظهره سراً آخر..

وكان قد تعود أن يخذله في أوقات الشدة ويطعنه من الخلف مثل أي عدو حقيقي، لكن الزنجي لم يكن يفضي بذلك السر لأحد أيضاً، ولم يفض به لامرأته أو للبحر أو للسلاحف أو للصيادين.. كان يكتفي بأن يشده بشملته الحمراء، وكان يلكزه بقبضته عندما يعقره فجأة من الخلف، ويقول له بعناد:

ـ هذه عادة الكلاب على الدوام.. دع البرد ينخر عظامك.. هل تعتقد أن أمرك يهمني؟..

وكان يعيره في الخفاء بظهور السلاحف الصلدة ويقول له على انفراد إن السلحفاة التي تملك ظهراً عظمياً متماسكاً تستطيع في الواقع أن تقمصه فوق قاربه إلى قطعتين لو لا أن الحربون يخف إلى نجدته..

وفجأة رفع الزنجي رأسه فيما كان يستلقي على وجهه فوق الشريط الرملي، وتذكر لأول مرة أنه يواجه سلحفاته بدون حربون، وأن العاصفة قد جرته دون أن يدري لكي يجرب الصمود بظهره المضحك وحده ضد ظهر السلحفاة، وتلفت حوله في ريبة ثم عاد فأغلق عينيه وأسلم وجهه فوق الرمل المبلول..

كانت العاصفة تعرف كل شيء.. وكانت تعرف أنه مجرد عبد من عبيد الدنقة، وأن الله قد نخر عظام ظهره مثل بغلة عجوز، وأنه لا يملك في الدنيا بأسرها ثمة من يرضى بأن يقف إلى جانبه سوى الجرذ المحاصر فوق التلة.. وكانت العاصفة قد جرته دون أن يدري إلى الساحة الرملية لكي تجعله يرى ذلك كله بعيني رأسه، ثم قالت له بصوت مسموع:

ـ العبد يجر سيدته مثل البغل.. العبد المضحك يزحف على ركبتيه في الوحل ويجر سيدته مثل البغل.. لماذا لا يأتي الفقي الآن لكي يرى ذلك نفسه؟.. هل قلت ذات مرة أن البحر يقف بجانبك؟..

ورفع الزنجي وجهه متوقعاً أن يرى الفقي ينتصب فجأة أمام عينيه، ثم استدار ببطء في اتجاه البحر، ونظر إلى الحاجز الصخري المغمور في المياه، ورأى أحد الصيادين الذين يعملون بعبوات الجيلاطين يذرع طرف الخليج الغربي، ورأى النوارس تتبعه على ارتفاع منخفض، وغرس قدميه في الرمال وشرع يجر سلحفاته مغمض العينين حتى وضعها على حافة الطريق العام.. لقد فعل ذلك بظهره المضحك.

وفي لحظة ما توقفت العاصفة لكي تنظر إليه بذهول.. ثم دارت على أعقابها وانطلقت تصرخ مثل كلبة مذعورة.. وحرك الزنجي

شفتيه المتيبستين وهمس في أثرها بصوت خافت خال من الحياة:

ـ اذهبي لكي تقولي ذلك لأمك العاهرة، لقد رأيت كل شيء بنفسك.. إن العبد أيضاً يملك ظهراً عظمياً.

لكنه لم يكن يملك ظهراً عظمياً.. وقد اكتشف ذلك على الفور، واكتشف أيضاً أن الوخز المؤلم الذي كان ينبض في أسفل ظهره قد ارتفع فجأة وانطلق يسري تحت جلده مثل عرق من النار.. وعندما انحنى بعد ذلك لكي يغسل سلحفاته من الطين وعروق التفن المتيبس، كانت آلامه قد تضاعفت إلى حد لا يحتمل، وكان عليه أن يتوقف بين حين وآخر ويشد ظهره بيديه.. ثم اعتراه الدوار، ورأى النتوء الجبلي يقلع فجأة على وجه المياه ورأى قوارب الصيادين تقلع وراءه في حماية الحاجز الصخري، ومد يده عبر السحب الراكضة فوق حافة الطريق العام ولمس سلحفاته لآخر مرة وفيما كانت تقلع بدورها على متن المجدافين في اتجاه البحر، وقال لها مودعاً:

ـ أنا سأتركك الآن يا سيدتي.. لقد انتهت رحلتنا معاً عند هذا الحد وسوف يحضر أحد ما لكي ينقلك إلى السوق، هل يؤلمك ظهرك مثلي؟.

وبعد ذلك قال لها مواسياً فيما كان يترنح وسط العاصفة في اتجاه بيته:

ـ إنهم سيضعون حداً لآلام ظهرك على الفور.. أعني هكذا كما يطرقع المرء أصبعه.. ثم تفتحين عينيك وتكتشفين أن ظهرك لم يعد يؤلمك.. هذا ما يحدث في السوق.. إن كل شيء ينتهي في غمضة عين..

كان ظهره يؤلمه.. وكان يشده بيديه مستشعراً مطواة خادم

السوق العاجية المقبض تنقر حافة الفقرات العظمية لكي تجردها من اللحم.. وقد أحس بها تحط في رفق على موضع الألم بالضبط وتفتح فوقه جرحاً ثلجياً لذيذاً مثل عرق من الماء المثلج، ثم رأى نفسه يستلقي على وجهه فوق اللوح المرمري المعد لذبح السلاحف، ورأى سلحفاته تدفن رأسها بجانبه وعرف أنهما وصلا أخيراً إلى نهاية رحلتهما جنباً إلى جنب، وأن أحداً منهما لم يعد لديه ثمة ما يشكو منه.. ورفع رأسه وغمزها بعينه على مرأى من خادم السوق، ثم لحقه الندم ودفن وجهه في اللوح المرمري مستسلماً لنقرات المطواة المتناهية الألفة..

وعندما فتح عينيه بعد ذلك ورأى امرأته تتمايل بجانبه جاثية على ركبتيها عبر رائحة الخل النفاذة، غالبه شعور مفاجيء بالوحدة، وتمنى عبر لحظة عقيمة حافلة بالنزق لو كان بوسعه أن يزيحها جانباً ويعود لكي يستلقي بجانب سلحفاته على اللوح المرمري.. لقد كان ظهره المضحك ينال جزاءه هناك بمطواة خادم السوق، وكان لا يملك فرصة لكي يفضح سره أمام أحد..

وسألته امرأته عبر رائحة الخل النفاذة:

ـ هل وصل الوجع إلى هنا؟.. إن أسفل الظهر متورم قليلاً.. انظر.. هل تحس بالورم؟..

ثم وضعت يدها على موضع الألم بالضبط وضغطت فوقه برفق دون أن تحيد بعينها عنه.. كانت تعرف ما حدث وكانت تضع يدها على الدليل المتناهي القبح والوضوح..

وقال لها الزنجي ببطء كاتماً آهاته في حلقه:

ـ أجل.. أنا أحس بالورم الآن.. لقد كسرت الملكة الجنية ظهري.. هذا ما فعلته، أعني هكذا كما قلت أنت بالضبط.. لقد

وقفت فجأة على زعانفها الخلفية وسلطت سيفها الذهبي في ظهري.. هل سلط أحد ما سيفاً ذهبياً في ظهرك قط؟..

وغمست امرأته أصابعها في صحن الخل ومسحتها في ظهره دون أن تقول له شيئاً.. كانت تكره طريقته في إبداء تهكمه باختراع القصص غير المعقولة، وكانت لا تتذكر قط أنها قالت له ذات مرة أن السلاحف تسلط سيفاً ذهبياً في ظهر أحد.. ذلك مجرد كذب من جانبه.. لقد قالت له إن المرء لا يتسبب في إيذاء السلاحف دون أن ينال عقابه.. هذا ما تتذكره، وتتذكر أيضاً أن الزنجي نال عقابه على الدوام، وأن الله حرمه من نعمة الخلف، وشرده بين قرى الصيادين، وأن العاصفة جاءت في أثره، وأن ظهره تورم فجأة هذا الصباح.. كانت قد رأت ذلك كله بنفسها.. وكانت تعرف أنها أدلة كافية على أن الزنجي يختار طريقاً خاطئاً، لكنها لم تقل له شيئاً يثير سخطه، وقد كان عليه أن يرى ذلك بدوره..

وحطت إحدى الحمامات البرية عند باب الدار ثم قفزت إلى المدخل وراء حبات الشعير المتناثرة من طحين اليوم السابق، وراقبها الزنجي صامتاً، وتذكر صديقه الجرذ المحاصر فوق التلة.. وتذكر أنه لا يملك جناحين، وأنه ترك له حبله لكي لا يموت بالجوع.. وقال بغضب مفاجىء:

ـ إن الملكة الجنية ذات السيف الذهبي لا تساوي جرذاً من هذا العالم.. لماذا تتشاجرين معي؟.. إنني لم أفعل شيئاً من شأنه أن يدعو أسيادك المضحكين إلى كسر ظهري، لقد ذهبت لكي أضع سلحفاتي على الطريق العام حتى لا يتركها عمال السوق منقوعة في مياه البحر إلى يوم غد.. هذا ما فعلته.. وإذا كان أحداً ما يزمع

أن يكسر ظهري من أجل ذلك، فأنا أقول إنه ابن زناء، وأقول أيضاً إنه لا يساوي جرذاً واحداً..

كان لا يعرف لماذا يصر على ذكر الجرذ أمام امرأته، ولقد أحس أنه يغامر بإثارة شكوكها، لكن ذلك كان يمنحه شعوراً خفياً بالألفة، وكانت عينا الجرذ تقتحمان وحدته.. ثم تذكر فجأة أن زوجته لم تتشاجر معه.. وتذكر أنها لم تقل له شيئاً عن السلاحف، ولم تقل له أن أحداً كسر ظهره أيضاً.. لقد كانت تدلك ظهره المضحك بالخل.. هذا ما فعلته.. وكان ذلك في الواقع لا يدعوه إلى أن يناصبها العداء.. وفي اللحظة التالية بدأ الزنجي يغالب شعوراً جامحاً بأن يمد يده إلى جانبه ويقرصها في بطنها علامة الرغبة في الصلح.. لقد كانت تلك العادة الرديئة هي وسيلته الوحيدة لإبداء رغبته في الصلح مع امرأته، وكان لا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك خطوة واحدة، لكنه لم يمد يده على أي حال. لقد عاد فتذكر ما قالته في الليلة الماضية عن الصبي الميت، وتذكر أنها سمعته يصرخ في المنام، وقرر أن يعدل عن الصلح معها، ويبدأها بالعداء، وعندما وضع يديه تحت ذقنه وشرع يراقبها من أسفل، كان بوسعه أن يكتشف أن بياض عينيها الذي يومض في العتمة يدعو في الواقع إلى الضحك، وأن أنفها الأفطس يبدو من أسفل مثل رطبة مثقوبة، وأن أذنيها مهدلتان إلى حد لا يحتمل، وأنه لا يدري لماذا لم يطلقها ويتزوج امرأة بيضاء..

كان قد تزوج امرأة بيضاء في المرة الأولى، وكانت أذناها مهدلتين أيضاً، لكنه نسي ذلك بمرور الزمن، ونسي أنه قال لها قبل أن يطلقها أنها لا تساوي عنده ظفر امرأة زنجية.. كان يستطيع أن ينسى ما يشاء، وكان قد تعلم من البحر أن يترك الأشياء الميتة وحدها تطفو على السطح.

وفجأة رفع الزنجي رأسه وقال لامرأته في نزق:

ـ لقد ظهر ذكر السلحفاة في الخليج.. هل تعرفين ما حدث لقد رأيته بنفسي هذا الصباح.. أعني السلطان المسحور الذي يحمل طبقاً مسحوراً فوق رأسه ظهر الآن في الخليج.. وأنا أقول إنه جاء في أعقابي، وإنه يبحث عن امرأته..

كان قد اختلق الحادثة لتوه.. وكان يفتتح معركته من الجانب الذي يستطيع أن يحرز منه نصراً خاطفاً وخالياً من العناء، فقد كان يعرف أن مجيء ذكور السلاحف وراء إناثها أسطورة شائعة بين جميع الصيادين ونسائهم أيضاً، وكان قد تأكد بنفسه من أن شيئاً لم يظهر في الخليج..

وهدأت يدا امرأته فوق ظهره لحظة خاطفة واحدة ثم عادتا تواصلان حركتهما الرتيبة عبر رائحة الخل النفاذة. كانت تلزم جانب الحذر أمام فخه المضحك.. لكنه لاحظ أن يديها توقفتا عن الحركة.. وقال لها مرة أخرى:

ـ لقد دخل إلى الخليج عبر الممر الشرقي.. إن عمق المياه هناك يزيد في أيام العاصفة عن قامتين أو لعل الله حمله بسلسلة وألقاه من السماء.. إنني لا أعرف كيف وصل هذا المخلوق المشبوه إلى الخليج.. ولكنه وصل على أي حال، وأنا أقول إنه جاء في أعقابي..

ثم أصبحت قصته المختلقة حقيقة واقعة.. وانطلق يرويها بتركيز بالغ حتى خيل إليه في لحظة ما أنه يستطيع أن يخرج فوراً إلى الخليج ويرى ذكر السلحفاة ينتظره هناك مرفوع الرأس.. لكن امرأته لم تذهب وراءه إلى هذا الحد واكتفت بأن ضغطت فوق

ظهره المضحك متظاهرة بأن ذلك جزء من العلاج، ثم قالت له بازدراء:

ـ ماذا دهاك.. هل تعتقد أنني أزمع أن أمزق قميصي وأشرع في البكاء خوفاً عليك.. ان أمرك لا يهمني.. هذا وجه الحق.. وبوسعك أن تملأ الخليج كله بذكور السلاحف وتجعلها تجري في أعقابك.. إن ذلك يخصك وحدك.

كانت تبذل جهداً مضنياً لكي تخيب أمله في إثارة خوفها وكانت قد قررت أن تراقب يديها لكي لا تتوقفا عن الحركة قط، لكنها لم تكن تعرف على وجه اليقين أن زوجها يختلق قصته الفظيعة، وكانت تحس بالخوف على أي حال.

وفجأة أحدث الزنجي تغييراً مميتاً في خطته وواجهها عند النقطة التي لم تضعها في حسابها قط.. لقد نظر إليها في يأس ثم قال لها مشيحاً بوجهه:

ـ كذب.. هل قلت إنني أكذب عليك؟.. أجل هذا ما كنت أفعله.. لقد كنت أكذب عليك.. إن الصياد لا يجد ثمة ما يقتل به الوقت في أيام العاصفة سوى أن يكذب على امرأته.. لماذا تحتاجين إلى أن تمزقي قميصك؟.. هل قلت لك مزقي قميصك من أجل عبد مثلي؟.. إن أمري لا يهمك.. أعني ليس على الدوام، وهذا أيضاً ما أتوقعه.

كان يريد أن يقول لها في الواقع أن أمره لا يهمها لا بقدر ما يحضر لها من الطعام الذي تملأ به بطنها، وأنه بالنسبة لها مجرد عبد لشراء الخبز والخضار حصلت عليه بالمجان.. وكان يريد أن يعيرها بأنها مثل سمك البوري.. تأكل الطعم وتذلق على الصنارة، لكنه أدرك أن ذلك سوف يفسد خطته، ويجعلها تنسى ذكر

السلحفاة، وكان لا ينوي أن يمنحها هذه الفرصة.

وسألته امرأته في هدوء:

ـ هل تعني أن ذكر السلحفاة ظهر حقاً في الخليج؟.. أقصد هكذا أمام عينيك؟.. إنني لم أقل أنك تكذب.. لقد ظننت أنك تمزح فحسب.. هذا ما ظننته.. هل كنت تمزح باختلاق هذه القصة المقززة؟.

وأصدر لها الزنجي ضحكته القبيحة المبتورة من بين شفتيه والتزم الصمت.. لم يقل لها إنه كان يمزح، ولم يقل لها إن ذكر السلحفاة ظهر حقاً في الخليج أمام عينيه.. لقد كانت خطته أن يتركها معلقة في الهواء، وكان يعرف أنه علقها هناك لتوه، وإنه يستطيع أن يستلقي على ظهره ويتسلى بمشاهدتها وهي تلوح بيديها ورجليها على غير هدى. كان يملك سلحفاة مقلوبة على ظهرها أينما ذهب.

وعندما نهض بعد ذلك، وربط شملته الحمراء حول وسطه، كان الوجع قد فارقه إلى حد ما، وكان يعرف أن امرأته خسرت معركتها ضده كما خسرت العاصفة معركتها فوق الساحة الرملية، وكان يعرف أنها تزمع أن تلتقط عباءتها وتتسلل إلى المرابط المجاور بمجرد أن يوليها ظهره لكي تحرضه ضده وضد الصبي وذكر السلحفاة والعاصفة ومطعم الرومية، وقال لها محذراً عند باب الدار:

ـ إذا خرجت من البيت فسوف أفقأ عينيك.. هذا ما أقوله لك.. إنني سأعود في أي وقت، وإذا لم أجدك هنا فسوف أفقأ عينيك.. إنني لا أريد أن أرى امرأتي تتسكع طوال النهار أمام أهل سوسة مثل محظية..

وكان يفرد أصبعيه مثل سفودين مخصصين لفقء العيون وكان قد تعود أن يقول لها إنه لا يريد أن يراها تتسكع طوال النهار أمام أهل سوسة مثل الدلالة، ولكنه اختار اسم «محظية» هذه المرة لأنه تذكر أن تلك العجوز المجنونة كانت تحرض المرابطين ضد الناس إذا أثاروا غضبها لأمر ما.

ورفعت امرأته رأسها وشرعت تراقبه في يأس دون أن تقول له شيئاً، لم تكن تعرف معنى «محظية» ولم تكن تزمع أن تخرج من البيت أو تتسكع في شوارع سوسة أو تذهب إلى المرابط وتحرضه ضد أحد.. إن ذلك كله لم يعد مجدياً بالنسبة لها، فقد باتت تقف على بعد كاف من جميع الناس والشوارع والمرابطين.. وباتت تقف هذه المرة معلقة في الهواء..

وفجأة أطلعت الشمس رأسها من بين السحب وقالت للمرأة الزنجية:

ـ إن العاصفة انتهت.. هذا ما ترينه بنفسك.. لقد كانت مجرد ريح بحري طارىء، أما ذكر السلحفاة فقد ظهر في رأس زوجك وحده.. هذا ما أقوله لك إنه ما يزال يسبح في عينيه المضحكتين.. لماذا لا تدعينه يقسم لك؟..

وفتحت فمها مغلوبة على أمرها وسألته في هدوء:

ـ هل تريد أن تقسم أن ذكر السلحفاة ظهر في الخليج. أعني هكذا تقسم بالله على أنه ظهر في الخليج هذا الصباح، إنني لا أصدق كلمة واحدة من قصتك المختلقة.

ونظر إليها الزنجي في ازدراء ولم يقل لها شيئاً..

لقد كان طلباً مضحكاً على أي حال، وكان قد نسي ذكر

السلحفاة، ونسي قصته المختلقة أيضاً، ولم يعد يملك في ذهنه سوى اصبعيه المعقوفين مثل سفودين مخصصين لفقء العيون، وقد عاد فنظر إليها في ضوء الشمس، واكتشف أنهما سخيفان إلى حد ما، وأن امرأته البلهاء قد أفسدت كل شيء، وأدار لها ظهره محاذراً أن يغلبه الضحك وانفلت إلى الشارع..

كانت تستطيع أن تفسد كل متعه الصغيرة في إنزال العقاب بها..

وكانت تملك خطة واحدة لا تتغير.. أن تلتزم الصمت وتنصت إليه واجمة حتى تسمع صوت أحد ما يتحدث إليها ثم ترفع رأسها وتفعل بالضبط ما يقوله لها.. وكانت تجد دائماً ما تحتاجه لكنها لم تلاحظ ذلك قط.

وقال لها الزنجي فيما كان يخوض في الغدران على طول الطريق العام قاصداً قاربه:

ـ لماذا تريدنني أن أقسم لك؟.. ألا تصدقين أن سلطانك المعتوه قد حمل طبقه فوق رأسه وجاء للبحث عن امرأته.. لقد ظننت أنكم جميعاً تعرفون ذلك بدون حاجة إلى أن يقسم المرء لكم..

كان يعني بكلمة «لكم» العالم بأسره ما عدا الجرذ المحاصر فوق التلة، وكان ظهور الشمس المفاجىء قد شد أزره ضدهم جميعاً، وجعله يتوقع في الخفاء أن تهدأ الريح قبل الظهر، وأن يتمكن من الوصول إلى الجزيرة مرة أخرى لكي يرفع خيوطه ويعود خلال الليل، لكنه لم يكن يرغب في أن يترك خطته الخفية تطفو على السطح.. لقد بدت مواتية أكثر مما ينبغي، وكان يزمع أن يحتفظ ببعض الشكوك الصغيرة ويتظاهر بأنه يحتاج إلى أن يقضي النهار في القرية على أي حال، ويعد بعض النكات مع الرومية صاحبة

المطعم عن ذكر السلحفاة، ويجرب الحصول على محرك الرومي الأعرج..

وعندما عبر الساحة الرملية ورأى أحد الصبيان الذين يعملون في سوق السمك يحاول جاهداً أن يربط له قاربه بمرساته الإضافية في وسط الخليج شرع يومىء له بيده لكي يدعوه لإعادة القارب مرة أخرى إلى مكانه السابق عند مدخل الخليج.. كانت خطته الخفية لم تفسدها الشكوك بعد إلى الحد الذي يدفعه إلى أن يسمح بربط قاربه بعيداً عن المدخل..

ثم قال له بصوت منخفض محاذراً أن يسمعه أحد ما:

ـ دعه وشأنه يا ابن الزنا.. هل يضايقك أن يبقى القارب عند المدخل؟.. إنني أريده أن يتحطم على الصخور، أعني هذا ما أريده، هل تعتقد أن ذلك من شأنك؟..

وجدف الصبي غير مصدق إلى حافة المياه العميقة وراء المدخل محاذراً أن تجرفه الأمواج على الرأس الصخري المغمور في المياه، وقال للزنجي بأعلى صوته:

ـ ماذا تريد؟.. أنا سأربطه في وسط الخليج.. لقد استعرت المجدافين من شريكك..

ولكن الزنجي أومأ له بيده في ضيق لكي يلقي المرساتين عند المدخل ثم لوح له بقبضته مهدداً.. كان لا يهمه أن يعرف ممن استعار المجدافين، وكان يريد أن يرى قاربه يعود إلى مكانه السابق قرب المدخل.. وقد ظل واقفاً عاقداً ذراعيه فوق صدره حتى رأى الصبي يلقي المرساتين في المياه ويسبح عائداً بالمجدافين إلى الساحة الرملية، ثم أمسكه من أذنه وقال له متوعداً:

ـ اسمع.. لا تعد تلمس ذلك القارب قط.. إنني سأكسر

رأسك إذا رأيتك تقترب منه مرة أخرى.. هل سمعتني الآن؟..

وأزاح الصبي يده وقال له في ازدراء مفاجيء:

ـ لقد كنت أريد أن أبعده عن الصخور.. هذا ما كنت أريد أن أفعله.. هل تعتقد أنني أسرق قاربك.. إن شريكك بنفسه طلب مني أن أربطه في وسط الخليج وتركني أستعير مجدافيه.

وقاطعه الزنجي بغضب لا مبرر له:

ـ أنا لا أملك شريكاً على الإطلاق.. ما الذي يدعوك إلى اختراع هذه القصة الآن؟.. اسمع.. أنا قلت لك إنني لا أملك شريكاً، ولا أريد أن تلمس قاربي مرة أخرى قبل أن أطلب منك ذلك.. هل سمعتني الآن؟.

وأشاح الصبي بوجهه وقال له وهو يضع المجدافين فوق كتفه:

ـ أجل.. لقد سمعتك.. ماذا تريد مني.. إن قاربك مربوط الآن في مكانه، وسوف أطلب من الله أن يحطمه لك على صخور المدخل.

كان ذلك في الواقع طلباً وقحاً يستطيع الصبي أن ينال في مقابله بضع صفعات من أي صياد في المنطقة، ولكنه كان يعرف أن الزنجي يعامله دائماً معاملة الند للند. وكان يريد أن يثبت له أنه يعرف كل شيء عن العاصفة، وأنه يتوقع أن تزداد عنفاً خلال النهار رغم ظهور الشمس، وتكسر قاربه على صخور المدخل.. وقد التقط الزنجي هذه الإشارة النزقة على الفور ووضع يده على كتف الصبي، وقال له فيما كانا يعبران الساحة الرملية عائدين في اتجاه الطريق العام جنباً إلى جنب:

ـ لماذا تعتقد أن الله لا يملك ثمة ما يفعله سوى أن يستمع إلى

طلبات ابن زناء مثلك؟.. أعني أليس هذا مضحكاً؟.. أن تسرق قاربي أول الأمر، ثم تطلب من الله أن يحطمه على صخور المدخل عندما أدعوك لكي تعيده إلى مكانه.. اسمع.. ألا يقنعك ذلك بأنك في الواقع مجرد ابن زناء؟.. ماذا تريدني أن أقول لك؟.. انني أنوي أن أقنعك بأنك تتدخل فيما لا يعنيك.. هذا كل ما في الأمر.

ولقد أدرك إذ ذاك أنه يستطيع أن يقنعه بطريقة أفضل لو قال له مباشرة أنه لا يعتقد مثله بأن العاصفة ستواصل الهبوب، ولكن ذلك في الواقع كان سيورطه معه في رهان مضحك على مسمع من جميع الصيادين وكان يكفي أن يقبل الرهان في الخفاء.

وقال له الصبي فيما كان ينفض قدميه من الرمل على حافة الطريق العام:

ـ لقد حطمت العاصفة قارب أحد الصيادين ليلة البارحة وسوف تحطم قاربك أيضاً. هذا ما أردت أن أقوله لك. إنها لا تحتاج إلى طلب مني لكي تفعل ذلك.. اذهب لكي ترى حطام القارب بنفسك.. إنه ما يزال مدفوناً في أكوام التفن المحاذية للتلة.. هل تعتقد أن العاصفة ستخاف منك؟

وأومأ الزنجي برأسه ولم يقل له شيئاً.. كان الصبي قد تخلى عن كلمة «الله» واستبدلها بكلمة «العاصفة» وكان ذلك كافياً بالنسبة لصياد مثله، فالعاصفة عدو قديم لا غبار عليه لجميع الصيادين على حد سواء، وقد تعوّد الزنجي أن يتقبل سلوكها العدائي باعتباره جزءاً من مهنته، وتعوَّد أن يبادلها العداء، ويعمل جاهداً لكي يخيب أملها كلما جاءت لتحطيم قاربه، ويلصق بها أسوأ النعوت. لكنه لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك تجاه «الله»..

وسأله الصبي مرة أخرى مستشعراً رغبة طارئة في إذلاله:

ـ هل تعتقد أن العاصفة تخاف منك؟.. أعني هكذا ترفع يديها فوق رأسها وتقول لنفسها هذا قارب العبد مسعود الطبال وليس بوسعي أن أكسره له على الصخور.. هل تعتقد أنها تعرف اسمك على الإطلاق؟.

ـ إنها تعرف اسمي.. هذا ما أقوله لك.. إنها تعرف أسماء جميع الصيادين الكبار واسمك أيضاً، وتعرف أنها لا تستطيع أن تحطم قارب أحد منهم لأنها تشعر تجاههم بالخوف.. هل تعتقد أن العاصفة ليست خائفة منا؟.

كان قد أقحمه في صف الصيادين لكي يحرضه ضد العاصفة، وكان يحس أنه بوسعه أن يفعل ذلك ما دام «الله» لم يعد طرفاً في المعركة، وقد ابتلع الصبي هذا الطعم راضياً، ورفع رأسه أمام المجدافين وقال بوقار مفاجىء على عادة الصيادين عندما يتحدثون عن أعدائهم الكبار:

ـ العاصفة لا تخاف من أحد.. دعنا من هذه الحماقة أنا سأعود لكي أربط القارب في وسط الخليج إذا اشتد هبوب الريح.. هل تريدني أن أترك المجدافين هنا؟.

وربت الزنجي على كتفه وقال له بود:

ـ أنا لم أذكر لك أية حماقة.. إن هذا الريح الوضيع الشأن ليس عاصفة حقيقية.. هذا ما أعنيه، وإذا رآك تترك مجدافيك هنا، فسوف يعتقد أنك خائف منه.. هل أنت خائف منه؟..

وهزَّ له الصبي رأسه في يأس وانطلق يترنح في مجرى الريح حاملاً مجدافيه الثقيلين فوق كتفه.. كان قد أدرك أن الزنجي يريد

أن يترك قاربه عند المدخل لسبب ما، وكان يعرف أن عليه أن يعود لكي يربطه في وسط الخليج مرة أخرى إذا اشتد هبوب الريح، لكنه لم يفهم لماذا لا يريده أن يترك المجدافين فوق الساحة الرملية.. لقد كانا ثقيلين إلى حد لا يطاق..

وراقبه الزنجي واجماً لبعض الوقت، ثم رآه يترنح فجأة في قبضة الرياح، ورأى أحد المجدافين ينزلق وراءه ويندفع مرتداً إلى الخلف حتى يرغمه على الانحناء وقال له معتذراً:

ـ أنا لم أشأ أن أعذبك أيها الصياد، ولكني لا أريدك أن تترك مجدافيك المضحكين تحت أنفي.. هذا كل ما في الأمر.. هل فهمت ما أعنيه؟..

كان يعني أنه لا ينوي أن يترك العاصفة تدفعه الى أبعاد قاربه عن المدخل قبل أن تصبح عاصفة حقيقية، وكان يعتقد أن الريح المضحك سوف يتمادى في ممارسة لعبته المملة إذا رآه يقف مستعداً بمجدافيه.. لقد كان عليه أن يواصل الصمود أطول وقت ممكن، وكان بقاء المجدافين فوق الساحة الرملية إغراء لا مبرر له.

وفجأة بدأ يحس بالغضب تجاه تخاذل الصبي تحت وطأة حمله، وقال له معيراً:

ـ لا تدع الريح تطير بك وراء الجبل.. إنها في الواقع تستطيع أن تحملك مثل ورقة يابسة وتلقيك وراء الجبل لولا المجدافين. هل تعتقد أنك ستصبح صياداً إذا كنت تعول على هذين الذراعين المضحكين.

كان ذراعاه مضحكين أيضاً.. وكان أحدهما قد انكسر ذات مرة تحت المرفق مباشرة، لكنه تعود أن يتجاهل ذلك، وتعوَّد أن

يتظاهر بأنه لا يعرف أي ذراعيه قد انكسر.. فالصياد لا يحتاج إلى أن يعرف أسرار ذراعيه أمام أحد.. وكانا يبدوان من الخارج على ما يرام، وكان يجب أن يراقب الحبال الفاتنة السواد التي تتموج حول زنديه، ويرفعهما متعمداً في الهواء عندما يخرج وحده في قاربه، ويقول بصوت عال متعمداً أن يسمعه البحر والسلاحف وأسماك القرش:

ـ الصياد قوته في ذراعيه.. إن أحداً لا يستطيع أن يقهره إلا إذا انكسرا لسبب ما.. وأنا أقول إن النبيذ يزيدهما قوة..

لكنه تخلى عن هذه العادة بعد أن تقدمت به السن، واكتفى بأن يعتبرهما سلاحين عظيمين في الخفاء، ويربت عليهما بين حين وآخر عندما ينال حاجته من النبيذ. وفجأة ترنح الصبي للمرة الثانية فوق الطريق العام وانزلق أحد المجدافين وراءه مرتداً إلى الخلف تحت وطأة الريح، وأدار له الزنجي ظهره لكي لا يراه في ذلك الموقف المزري، ثم عبر الشريط الرملي الضيق ووقف يراقب النوارس الحائمة فوق الخليج متظاهراً بأن مشكلة الصبي لا تخصه.

كان قد جاء إلى الساحة الرملية لكي يراقب النوارس، وكان يعتقد أنه بوسعه أن يعرف منها ما تزمع العاصفة أن تفعله، وقد لفت نظره نورس كبير أسود الرأس ظل يطير على ارتفاع عال في قلب العاصفة ميمماً صوب الجزيرة، ثم يعود مرتداً تحت وطأة الريح ويحوم فوق الخليج مبدياً سلوكاً عدائياً تجاه بقية الطيور، وقد راقبه الزنجي أول الأمر باهتمام لكي يعرف منه مدى ارتفاع الريح، ثم أثاره سلوكه العدائي وأشاح عنه بوجهه واجماً، فقد خطر بباله أن الطائر يرتاد قمة الريح لكي يختبر قوتها، وأنه يعود يائساً في كل مرة ويحذر بقية أفراد السرب، وكان الزنجي لا يعرف ما الذي

يدعوه إلى اليأس.. وقد عاد فهز كتفيه مسلماً بحيرته وقال بصوت عال فيما كان يراقب قاربه:

ـ سوف أطلب من الصبي أن يربطه في وسط الخليج بعد الظهر.. أعني أنا أستطيع أن أفعل ذلك في أي وقت، أي رهان؟.. إني لم أقل له شيئاً على الإطلاق.. لقد كنت أنوي أن أدهن مقدمة القارب ببعض الشحم.. هذا ما كنت أنوي أن أفعله، ولكن إذا ازداد هبوب الريح فسوف أطلب منه أن يربطه في وسط الخليج.

كان قد اختلق لتوه قصة دهان القارب بالشحم..

وكان يزمع أن يرويها للصبي إذا اضطرته العاصفة إلى أن يغير رأيه بشأن مكان القارب، لكنه كان يعرف أنها قصة مزرية، وكان رهانه الخفي يثير قلقه.. وعندما وصل أحد النوارس إلى الساحة الرملية وشرع يراقبه معلقاً في الهواء رفع إليه الزنجي رأسه وسأله متظاهراً بالرغبة في المزاح:

ـ هل ستهب العاصفة أيها الغراب الأبيض؟.. أعني أنا أقول إنها ستهدأ قبل الظهر، وأن قاربي يستطيع أن يظل في مكانه..

ثم تذكر سلوك الطائر الأسود الرأس وقاله له في مكر:

ـ ما الذي كان يختلقه لكم ذلك النورس المعمم؟ هل أخبركم أيضاً بأن الأسياد أحضروا العاصفة في أعقابي؟.. لقد رأيته يصعد السماء ثم يعود لكي يصرخ عند رؤوسكم وظننت أنكم بدوركم تملكون نصيبكم من أبناء الزناء الذين يصعدون إلى السماء لكي يحضروا لكم القصص المختلقة.. اسمع، أنا لا أملك جناحين، ولكني أعرف عن العاصفة أكثر مما يعرف ذلك النورس المعمم. هل تصدقني وأنا أقول إنكم تستطيعون أن تنالوا حاجتكم من صغار الشلبة التي دخلت الخليج وتملأون بطونكم بالهناء. هذا ما أقوله

لكم.. اسمع، لماذا تهز لي رأسك؟.

وكان الطائر قد هزَّ له رأسه..

لم يكن ذلك وهماً، بل كان حقيقة واقعة، وقد وقف معلقاً في الهواء وهزَّ له رأسه فيما سأله الزنجي مرة أخرى مبدياً ازدراء مفاجئاً:

ـ ماذا يعني ذلك أيها الغراب الأبيض؟.. هل تعتقد أنني أكذب عليك؟.. إن النورس المعمم يستطيع أن يجد ألف عاصفة في السماء، ولكن العاصفة لا تهب حقاً إلا إذا وجدها صياد مثلي ومثلك معلقة فوق الخليج.. لماذا تهز رأسك المضحك؟.

كان يمارس معه حيلته القديمة، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يستميله إلى جانبه إذا أقحمه في صف الصيادين، ولكن الطائر لم يستجب له.. لقد عاد فحلق باتزان فوق الطريق العام ثم وقف معلقاً فوق رأسه، وقال له بوضوح:

ـ العاصفة بيد الله أيها الصياد.. أنت لا تعرف شيئاً عنها، ونحن لا نعرف شيئاً عنها، من زعم لك أن النورس المعمم يختلق قصته في السماء، إنه يصعد إلى هناك لكي يختبر قوة الريح.. هذا ما يفعله، ولو كنت تملك جناحين قويين مثله لفعلت ذلك بالضبط..

ثم قال له الطائر:

ـ ذلك النورس ليس معمماً على أي حال.. إنه أسود الرأس.. هذا كل ما في الأمر، أعني أنه زنجي مثلك.

وفي اللحظة التالية بدا كل شيء على ما يرام.. وقرر الزنجي في لحظة واحدة عميقة الغور أن يضع رهانه الخفي جانباً، ويضع معه

الأسياد والسلاحف والصبي الميت وامرأته أيضاً، ويقتدي بسلوك الطائر الأسود الرأس، فقد كان ذلك الطائر صياداً مثله، وكان يراقب العاصفة عن كثب دون أن يدخل في رهان معها، أو يعتبرها عدوته، أو يضع الله والأسياد وراءها، أو يهرب من وجهها.. لقد كان يفعل ما يحتاج إليه بالضبط ولو كان يملك قارباً لتركه ينتظر عند مدخل الخليج، وترك المجدافين بجانبه..

وفجأة قال الزنجي:

ـ المجدافان في متناول اليد انني أستطيع أن أحضرهما في أي وقت، وسوف أقول للصبي أنني أزمع أن أدهنهما ببعض الشحم..

ثم استدار عائداً في اتجاه القرية، وتعمد أن يتفادى المرور بالقرب من التلة التي لجأ إليها صديقه الجرذ لكي لا يتسبب في إزعاجه.. وصعد إلى الطريق العام ميمماً صوب سوق السمك ليطلب من الصبي أن يعيد المجدافين إلى الساحة الرملية.. وعندما لمح بعض الصيادين يتشاورون بجانب دكان البقالة انحرف فجأة إلى اليمين ودار حول بناء الكنيسة لكي لا يراه أحد منهم.. كان يعرف أنهم يدبرون أمر الحصول على بعض زجاجات النبيذ، وكان لا يريد أن يسكر معهم اقتداء بالطائر الأسود الرأس.. ثم لفت نظره مدخل الكنيسة المرمري الذي فرغ العمال لتوهم من اعداده وراقبه بطرف عينه محاذراً أن يراه القس الواقف في الشرفة، وقال بعد ذلك:

ـ الصياد ينفق نقوده في شراء النبيذ أو يسرقها الطليان ويبنون بها لأنفسهم كنيسة مرمرية.. هذا ما يحدث.. إنهم يطالبونك بأن تدفع لهم نصف ما تكسبه مقابل رسوم الرخصة، ثم يسرقون النصف الباقي عندما تنام.. أعني لماذا لا يذهبون بأنفسهم

ويصطادون مثلك لكي يحصلوا على نقودهم بالحلال؟.. هذا ما أقوله، وأقول أيضاً إن رب النصارى يملك حاجته من الكنائس في بلادهم وأنه يستطيع في الواقع أن يترك الصيادين وشأنهم دون أن يبذر نقودهم في شراء الألواح المرمرية.

لم يكن الزنجي يحب أن يتحدث في السياسة، ولكنه كان يبحث في الخفاء عن سبب يدعوه إلى أن يبذر قليلاً من نقوده في شراء بعض النبيذ، وقد خيل إليه أنه يستطيع أن يجد سبباً كافياً لارتكاب هذه الحماقة إذا أقنع نفسه بأن نقوده ستضيع هدراً على أي حال، وأن الطليان سيأخذون نصفها لكي يبنوا لأنفسهم مزيداً من الكنائس. وكان على وشك أن يتخذ قراره بشأن المشاركة في شراء زجاجتي نبيذ مع أحد الصيادين، عندما اقتحم الطائر الأسود الرأس وحدته وقال له مكسور القلب:

ـ نحن لسنا مثل بقية الصيادين.. هل عرفت ما أعنيه؟ إننا عبدان مشؤومان، وقد جاءت العاصفة في أعقابنا، هذا ما يقال عنا، ويقال أيضاً إن صياد السلاحف لا بد أن ينال عقابه من الله، وأن العاصفة تختار قاربه لكي تحطمه على الصخور من دون بقية القوارب.. هل عرفت ما أعنيه؟. إن الطليان يستطيعون أن يبذروا نقودنا.. هذا أمر يحدث لجميع الصيادين على حد سواء، ولكن العاصفة التي تحطم قاربك شيء آخر.. هل عرفت ما أعنيه؟..

وقال له الزنجي ملوحاً بيده:

ـ العاصفة لن تنال قاربي بسوء.. من زعم لك أنني أنوي أن أسكر مع أحد؟.. لقد كنت غاضباً من الطليان، هذا كل ما في الأمر.. ألا تعتقد أن مدخل الكنيسة المرمري يثير الغضب؟..

ثم سمع أحداً ما يضحك بجانبه، والتفت محاذراً أن يبدو عليه

الذعر، ورأى المزارع الرومي الأعرج يراقبه ساخراً بعينيه الزرقاوين، وسمع صرير رجله الخشبية على أرض الشارع، وقال له مستشعراً ارتباكه:

- صباح الخير سنيور باولو.. لقد كنت أزمع أن أزورك في المزرعة بشأن المحرك.

ثم أدرك ما حدث وأشاح بوجهه مستسلماً لهزيمته. وقال له المزارع الأعرج بلكنة تقطر شماتة:

- هل فقدت رأسك في سوسة؟ ما الذي يدعوك إلى أن تلوح بيديك الفظيعتين هكذا في وسط الشارع؟.. هل كنت تحدث نفسك مثل المجنون؟.. لقد سمعت أنك فقدت عقلك وراء السلاحف.

ومنحه الزنجي ضحكته القبيحة المبتورة والتزم الصمت. كان المزارع الأعرج قد تعود أن يمزح معه، وكان يعتقد أن مزاحه يثير الضحك حقاً، وأن نكاته الغريبة ذات الطعم السيسلي الفج تبدو أكثر خفة عندما تجد موضوعاً مدهشاً مثل الزنجي الحالك السواد لكن الزنجي كان يحس بالإهانة في الخفاء، وكان لا يفهم نكات المزارع إلا باعتبارها إهانات متعمدة تستحق أن يكسر رأسه من أجلها، غير أنه لم يكن بوسعه أن يكسر رأس أحد الايطاليين دون أن يتعرض للجلد في وسط السوق، وكانت نكات المزارع أهون قليلاً بطريقة ما.

ثم قال له السنيور باولو بلكنة رجل الأعمال:

- لماذا تريد أن تزورني في المزرعة.. أنا قلت لك إن المحرك ليس للبيع، وإذا رأيتك تدخل مزرعتي فسوف أقطع رجلك، أعني ماذا تعتقد أنني أفعل بعبد مثلك في المزرعة إلا إذا كنت تزمع أن تحضر

لي معك هدية ما..

وكان ذلك يعني أن السنيور باولو بدأ يساوم على طريقته لكي يبيع له المحرك، وكان يعني أنه يحتاج إلى أن يحضر له قصعة السلحفاة التي رآها في السوق بمثابة هدية، ثم يحضر له قصعة السلحفاة التالية أيضاً ويساومه بعد ذلك في شراء المحرك، وقد التقط الزنجي هذه الغمزة الصغيرة بوضوح، لكنه لم يشأ أن يقول له شيئاً، فقد كان مشغولاً بأمر الحصول على المجدافين، وكان يعرف أن المزارع الأعرج سوف يذهب لكي ينتظره في مطعم الرومية ويجرب معه حيلة أخرى.

وعندما دار حول الميدان الصغير ورأى الفقي يتحدث مع أحد الصيادين عند مدخل السوق تظاهر بأنه يرافق المزارع في اتجاه المطعم ثم انحرف وحده وانسل عبر المدخل الجانبي وإذ ذاك سمع الصبي يقول له من وراء ظهره:

ـ هل تبحث عن قصعة السلحفاة.. لقد وضعوها في الملح.. إنها في ذلك الصندوق.

وأومأ له الزنجي برأسه متظاهراً بأنه جاء حقاً للبحث عن قصعة السلحفاة ثم أخذه من ذراعه وسأله في محاولة مؤلمة لخداعه:

ـ هل تناولت افطارك؟ اسمع. لقد طلبت مني امرأتي أن تحتفظ لك بطبق من الحساء.. اذهب لكي تتناوله قبل أن يبرد، واشتر لها الخضار للغداء.. ما الذي يدعوك إلى البقاء صائماً حتى هذا الوقت؟. ألا ترى ضلوعك المضحكة تكاد أن تنفذ من وراء جلدك؟..

ثم قال له بعد ذلك وهو يناوله ثمن الخضار مشيحاً بوجهه:

ـ وخذ المجدافين معك، أعني ضعهما فوق الساحة الرملية

واذهب لكي تتناول افطارك.. إنني لا أريد أن تعود لربط القارب، وسوف أفعل ذلك بنفسي.

كان قد أغفل متعمداً قصته المختلقة عن دهان المجدافين بالشحم، وكانت قد بدت إذ ذاك مزرية إلى حد لا يحتمل أمام عيني الصبي الودودتين.. لكن الصبي قابله بابتسامة مفاجئة، واضطره إلى أن يقول له:

ـ إنني أزمع أن أدهنهما ببعض الشحم.. لقد وجدت بقية العلبة بين نباتات الديس.. هذا كل ما في الأمر.

وعندما جاء أحد الصيادين وأقحم رأسه بينهما استدار الزنجي في ضيق ودفع الصبي بيده لكي يذهب على الفور ثم تظاهر بأنه يبحث عن صندوق الملح الذي يضم قصعة السلحفاة فيما قال له الصياد بصوت خافت:

ـ لقد أحضر لهم أحد السائقين عشر زجاجات من بنغازي بنصيف الثمن.. إنهم جميعاً في المقهى. هل تريدنا أن نذهب إليهم؟.. أعني نحن سندفع حصتنا أيضاً.

ومنحه الزنجي نظرة صارمة على عادته في معاملة صيادي الجيلاطين وقال له بازدراء:

ـ اذهب إليهم وحدك.. إنهم لم يدعوني لكي أذهب إليهم، هل تعتقد أنني نصاب مثلك؟..

ثم أدار له ظهره وانطلق عبر المدخل الجانبي في اتجاه مطعم الرومية مستشعراً عيني الصياد المدهوشتين في مؤخرة عنقه.. كان يريد أن يعاقبه لأنه سمع جزءاً من الحديث عن المجدافين..

ثم نسي كل شيء في طريقه إلى مطعم الرومية.. ونسي

المجدافين والعاصفة والطائر الأسود الرأس وظهره المضحك الذي فضحه أمام امرأته، ونسي مدخل الكنيسة أيضاً، وتعمد أن ينحني قليلاً إلى الوراء لكي يمشي ببطء أكثر. كان في طريقه ليقبض فرنكاته الثلاثة، وكان يعرف أنها تخصه حقاً رغم أنها ما تزال في صندوق المرأة الرومية، وأنه كسبها بدون معونة من البحر أو من الناس أو النصيب أو المحرك البخاري.. لقد وقفوا جميعاً ضده ووقف الله أيضاً إلى جانبهم، وجربوا معه كل ما لديهم من الحيل الفظيعة، وجربوا المطر المنتن والصبي الميت والعاصفة.. والأصوات القادمة من قاع البحر، لكنه لم يتخل لهم عن سلحفاته. لقد ربطها من عنقها بحبل، هكذا كما يفعل المرء بكلبته المدربة، وقطرها وراءه على مشهد من ظهره المضحك دون معونة من أحد سوى الجرذ المحاصر فوق التلة. وبعد ذلك رفع الزنجي رأسه إلى السماء وقال بهدوء:

ـ الله لم يقف إلى جانبهم.. هذه مجرد كذبة طارئة.. إن عبداً مثلي لا يستطيع أن يذهب إلى هذا الحد.

وكان ذلك يعني أنه بدأ يتذكر العاصفة، وأنه يملك تجاهها خطة محددة لن تفشل قط في إلحاق الهزيمة بها أو به.

لقد تعود أن يلجأ إلى هذا الحل المتسم بالعدالة طوال حياته.. وتعوّد أن يواجه أعداءه كما يراهم بعيني رأسه ويمد لهم ذراعه غير المكسور ويدعوهم إلى أن يختبروا قوتهم ضده متعمداً ألا يمنحهم فرصة للصلح من أي نوع. كان عليهم أن يهزموه أو يتركوه يهزمهم..

كان بوسعهم أن ينالوا العالم بأسره إلى جانبهم ما عدا الله وحده، فقد كان ذلك بالنسبة للزنجي عملاً خارجاً عن نطاق

المباراة، وكان يعرف على وجه اليقين أن الله مطّلع على كل أسراره، ومطَّلع على سر ظهره المضحك وذراعه المكسور، وأنه يستطيع أن يقلبه على وجهه في لمح البصر. ولم يكن يهمه في الواقع أن يقلبه أحد على وجهه، لكنه كان يهمه ألا يحدث ذلك في لمح البصر.. لقد كانت قدرته على مواصلة الصمود في كل ما يملكه وكانت العاصفة تستطيع أن تقلبه على وجهه، وكذلك يستطيع البحر والصبي الميت والفقي والطليان، ولكن كان عليهم أن يقهروا صموده أولاً، إما أن يسلطوا الله ضده لكي يلوي ذراعه المكسور مباشرة، أو يخترق ظهره في لمح البصر، فقد كان ذلك في الواقع شيئاً آخر لا علاقة له بخطة القتال.

ولمحه المزارع الأعرج الواقف في شرفة المطعم، ورآه يحرك يديه ويحدث نفسه واستدار ضاحكاً وقال لصديقته السنيورة توريستا:

- إن عبدك المفضل قد فقد رأسه.. ماذا فعلت به أيتها المرابية؟.. هل تجعلين جميع الرجال يفقدون رؤوسهم هكذا؟..

كانا قد أصبحا صديقين في الخفاء، وكانت السنيورة توريستا قد ذهبت مع المزارع الأعرج إلى بيته ليلتين متتاليتين وزعمت لنفسها أنها في الواقع قد قضت وقتاً طيباً. وأن المزارع رغم عادته المضحكة في دغدغة بطنها وجهله بالحد المقبول للعض، قد بدا في نهاية المطاف أفضل قليلاً من القس السابق، فيما قرر المزارع بدوره أن السنيورة توريستا تبدو من الداخل عادية إلى حد مريح، وأنه يستطيع أن يعتبرها امرأة محتملة بالنسبة لظروف الحب في سوسة، لكن أحداً منهما لم يقل شيئاً للآخر.. لقد ظلا حبيبين سريين، وظل المزارع يدعوها باسم المرابية، ويخفي عنها قصة نشأته في سيسيليا، وقد قال لها إذ ذاك:

ـ إن عبدها المفضل قد فقد رأسه، لأنه كان يعتقد أن السنيورة توريستا اختارت الزنجي من دون بقية الصيادين لكي توقعه في حبائلها.

وعند الشرفة قال الزنجي في ذات نفسه متعمداً أن يصفي حسابه قبل أن يدخل إلى المطعم:

ـ الله لا يقف بجانب العاصفة وحدها، إنه يقف بجانبي أيضاً.. هذا ما يفعله الله، أعني أنا مجرد عبد جاهل مثل الدابة، ولكني أقول إن الله يقف إلى جانبنا معاً.

وبعد ذلك وصلت إلى أنفه رائحة حساء السلحفاة من داخل المطعم، ورأى المزارع يراقبه من الشرفة ورأى المرأة الرومية تطل وراءه في فضول، وأدرك على الفور أن المزارع الأعرج فاجأه فيما كان يحدث نفسه للمرة الثانية ذلك الصباح.. وأن عليه أن يختلق له قصة ما لكي يشغله عن الجري وراء نكاته المزرية.. لكنه لم يختلق له شيئاً.

ولقد اقتحم الطائر الأسود الرأس وحدته دون أن يدري ووضع منقاره في أذنه وقال له بوضوح:

ـ هل تعتقد أنني كنت سأروي قصة مختلقة للرومي الأعرج لو كنت في مكانك؟.. هل تعتقد أنني كنت سأروي قصة ذكر السلحفاة لامرأتي لو كنت في مكانك.. أعني لو كنت أملك امرأة، ثم أقول لها إنني سأفقأ عينيها إذا خرجت إلى المرابط المجاور.. هل تعتقد أنني سأضيع وقتي في المساومة من أجل المحرك أو قصعة السلحفاة أو ابتكار النكات عن الفقي؟.. اسمع.. لماذا تلزم الصمت؟..

ثم قال له الطائر الأسود الرأس:

ـ الصياد يصفي حسابه مع العاصفة.. هذا ما يفعله الصياد.. يترك الناس جانباً ويترك السلاحف وامرأته والمزارع الأعرج والمحرك، ويصفي حسابه مع العاصفة.. هل قبضت فرنكاتك الثلاثة؟..

وقبض الزنجي فرنكاته الثلاثة، واختار مكانه بجانب النافذة المطلة على البحر وشرع يراقب العاصفة بطرف عينيه. كان يتحدث مع الرومية ويهز لها رأسه أيضاً، وكان يستمع إلى نكات المزارع الطارئة ويهز لها رأسه أيضاً وكان قد قبل كأساً متوسط الحجم من النبيذ بمثابة هدية خفية من المزارع الأعرج مقابل قصعة السلحفاة، وقرر في داخله أن يخيب أمله لكنه لم يقل شيئاً إذ ذاك، وكان يراقب العاصفة بطرف عينه..

وعند نهاية الضحى اهتزت رؤوس الشجيرات المتناثرة في سفح الجبل وأطلت إحدى السحب وراء النتوء الغربي وحملتها الريح في هدوء إلى وسط الخليج.. وكان الزنجي يراقبها بطرف عينيه.

ثم ارتفع الموج فوق الحاجز الصخري وبدا يعبر مدخل الخليج دون أن تعوقه الصخور، فيما تقدم الزبد الرغوي الناصع البياض فوق الساحة الرملية وانطلق يرتاد منطقة الشريط الضيق على حافة الطريق العام، وتحرك الزنجي في مقعده، ثم عاد فاستند إلى الوراء وظل يراقبها بطرف عينه.. وكانت الطيور قد اختفت لتوها من منطقة الخليج.. وكان ذلك قد دفعه إلى أن يتحرك في مقعده.

وفي اللحظة التالية أطلت الشمس برأسها وراء زجاج النافذة وقالت له على مسمع من الرومي الأعرج:

ـ العبد يراهن ضد العاصفة.. العبد المضحك يراهن بقاربه ضد الله والعاصفة.. إن خيوطه لا تشغل باله إلى هذا الحد، ولكنه

يختلق ذلك العذر لنفسه لكي يجد مبرراً ما لرهانه الخاسر.. هل عرفت ما أعنيه؟.. إن السلاحف تفعل كل شيء عادة في الخفاء..

ورفع الزنجي رأسه ونظر إلى المزارع الأعرج مستطلعاً، لكنه لم يبد عليه أنه سمع شيئاً.. كان ما يزال يثرثر بيأس بحثاً عن منفذ يقوده إلى الحديث عن قصعة السلحفاة، وكان النبيذ قد جره بطريقة ما إلى ذكر حرب الحبشة، وجعله يتورط في لعن الأحباش البربريين الذين أكلوا نصف الجيش الايطالي في الحرب الماضية، وعندما أدرك فجأة أن ذلك لن يقوده قط إلى الحديث عن قصعة السلحفاة، شرع يحك لحيته في ملل، ويلوم يسوع المسيح عن خسارة الحرب، فيما قالت الشمس للزنجي:

ـ ذلك الطائر المعمم لا يملك قارباً عند مدخل الخليج، هل عرفت ما أعنيه؟.. لقد أدار ظهره للعاصفة وعاد إلى بيته، أما أنت فإن عليك أن تذهب في الاتجاه الآخر لكي تبعد قاربك عن صخور المدخل.. هل عرفت ما أعنيه؟ إن الصياد يذهب دائماً في الاتجاه الآخر لأنه ليس طائراً.

ومنحها الزنجي ضحكة عالية متعمداً أن يبدو ذلك بمثابة مشاركة من جانبه في الحديث مع الرومي الأعرج.. لكنه لم يكن يعرف ما إذا كان الرومي قد قال شيئاً يدعو إلى الضحك، وقد اعتراه الندم على الفور عندما سمعه يسأله في بلاهة:

ما الذي يدعوك إلى الضحك الآن؟ هل تعتقد أنني أكذب عليك؟.. اسمع.. هذا ما حدث في المرة الأولى. لقد انحاز يسوع المسيح إلى صف البرابرة دون أن يدري وتركهم يأكلون معظم جنودنا.. هذا ما حدث، ولكن الأمر مختلف هذه المرة.. إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك بنا، هل سمعت ما قاله البابا؟..

وراقبه الزنجي آملاً أن يقرأ في وجهه ما قاله البابا عن حرب الحبشة ثم اعتراه اليأس وقال على غير هدى:

- النصارى معهم يسوع المسيح والمسلمون معهم الله، إن الأحباش أبناء الزناء لا يملكون فرصة واحدة.. لقد سمعت ما قاله البابا..

كان قد لجأ إلى هذه الحيلة الصغيرة لكي يفلت من عيني المزارع الأعرج المسلطتين في ريبة فوق وجهه، وكان قد ألصق بالأحباش صفة أبناء الزناء لكي يستميل وده، لكن البابا لم يكن قد ذكر شيئاً عن المسلمين أو الله، وكان قداسته قد لفت نظر رعيته في خطبته إلى أن الأحباش في الواقع مسيحيون ضالون، وأنه لا أحد يستطيع أن يعيدهم إلى جادة الصواب سوى المسيح نفسه. وكان الزنجي لا يملك فرصة واحدة على أي حال لكي يحدس شيئاً من ذلك.. وقد راقبه المزارع في ريبة ثم قال له محاذراً أن يخسر قصعة السلحفاة إذا أثار غضبه:

- يسوع المسيح وحده كفيل بهم، ذلك ما أقوله لك. إن البابا لم يذكر شيئاً عن «الله» هل سمعت خطبته حقاً؟ لقد قال إن يسوع المسيح وحده كفيل بهم.

ثم نظر حوله ورأى أحد الرواد الايطاليين يتسم له مشجعاً من وسط المطعم واضطر إلى أن يضيف بصوت عال تحت وطأة نظراته:

- إن الله يستطيع في الواقع أن يقف بجانب الحبشة، أعني هكذا كما وقف بجانبكم.. إن ذلك لن يعوقنا حقاً، ونحن نعول على يسوع المسيح..

وتنفس الزنجي ببطء وشرع يراقب الخليج واجماً، ثم نهض

فجأة وقال بصوت خافت:

ـ الأحباش زنوج مثلي والمسيح صياد مثلي.. إنني لا أريد أن أتحدث عن الحرب..

كان يعتقد أنه يستطيع أن يلجأ إلى هذا المنفذ ما دام يملك قصعة السلحفاة، وكان الطائر الأسود الرأس قد عاد للظهور مرة أخرى وراء الحاجز الصخري وحلق أمامه في مجرى الريح وقال له إن الأحباش زنوج مثلهما، وأن المسيح صياد مثلهما وأن البابا نفسه لا يستطيع أن يضيع وقته في الشجار عن الحرب لو كان يملك قارباً مربوطاً فوق صخور المدخل.. لكن الطائر نسي أن المسيح لم يكن زنجياً.

وفجأة نهض الزبون في وسط المطعم وبصق في وجه الزنجي..

لقد مال برأسه إلى الوراء وملأ شدقيه بالبصاق المخلوط بحساء السلحفاة ثم مدَّ عنقه وبصق في وجه الزنجي. وبعد ذلك أزاح مقعده جانباً دون أن يحيد بعينيه عنه:

ـ هل تحب أن تقول ذلك مرة أخرى أيها العبد؟.. قل إن المسيح شحاذ مثلك.

وفغر الزنجي فمه ووقف يراقبه دون أن يقول شيئاً.. كان قد تذكر غلطته المميتة، وكان يعرف أن خصمه قد أعماه الغضب، وأن عليه أن يعيده إلى صوابه قبل أن يتركه يسمع صوته.. وكأن الزنجي مضطراً للقتال بعينيه وحدهما وقال الزبون مرة أخرى فيما كان يتقدم نحوه عاقداً قبضتيه المدورتين:

ـ ماذا دهاك أيها الخنزير الأسود؟ لماذا تركن إلى الصمت؟.. قل إن المسيح شحاذ مثلك، وأنا أكسر رأسك الجهنمي.

ونهض المزارع الأعرج في بطء مزمعاً أن يتدخل لصالح قصعة السلحفاة، لكن الزبون أعاده إلى مكانه في حنق، ثم قال له:

ـ الأمر لا يخصك أيها السيسيلي.. الزم مكانك الآن دع عبدك ابن العاهرة يصف حسابه بنفسه.. لماذا لا تقول إن المسيح مثلك؟..

وبعد ذلك رأى الزبون عيني الزنجي.. ورآهما تراقبانه من سقف المطعم مثل نيزكين ساخطين قادمين لتوهما من الجحيم، ورفع قبضته المدورة إلى وجهه متخذاً وضعاً مضحكاً للقتال، ثم اعتراه اليأس وقال بصوت عال:

ـ أي بغل جبان؟.. لماذا لا تقاتل أيها الزنجي؟.. هل تريدني أن أبصق في وجهك مرة أخرى؟..

لكنه لم يبصق في وجهه مرة أخرى.. لقد توقف يراقبه لبعض الوقت ثم تراجع إلى الوراء عائداً في اتجاه مائدة افطاره وقال مخاطباً صاحبة المطعم:

ـ اطرديه من هنا.. إن القانون لا يبيح لك أن تتركي أحداً منهم يدخل مطعمك.. هل سمعتني؟ لماذا نملك قانوناً على الإطلاق ما دمنا لا نطيعه بأنفسنا؟ إنني أستطيع أن أجعلك تفقدين رخصتك.

وإذ ذاك عبر الزنجي صالة المطعم مطرق الرأس، ووقف في فوهة المدخل متظاهراً بأنه يختبر قوة الريح، ثم استدار ببطء وانطلق في اتجاه سوق السمك.. كان ما يزال يحمل فوق أنفه ذرة صغيرة من حساء السلحفاة الذي بصقه الزبون في وجهه، وكان قد كسبها بالإضافة إلى فرنكاته الثلاثة.

ثم مدَّ الريح يده عند مدخل السوق وأبعد ذرة الحساء

المضحكة، واستشعر الزنجي ملمسه البارد وابتسم له على مرأى من المارة.. لقد عرف على الفور لماذا لمس الريح وجهه وعرف أيضاً أنه لا يحتاج إلى أن يبتسم له في الخفاء فقد انتهى أمر العاصفة، وانتهى أمر الرهان والمجدافين والسلحفاة والصيادين.. إن الريح الشرقي قال له ذلك كله بلمسة واحدة من اصبعه الثلجي، وقال له أيضاً ان الطائر الأسود الرأس لم يعد إلى الخليج لكي يخدعه بشأن المسيح، وأن قاربه يستطيع أن يبقى عند المدخل دون أن يمسه الأسياد البلهاء بسوء، ثم أدار له ظهره وانطلق يركض وراء السحب البيضاء المدورة على قمة الجبل.

وتبعه الزنجي بعينيه المتوهجتين.. كانتا ما تزالان متوهجتين مثل نجمتين مسحورتين في وسط النهار، وكان الزبون الايطالي ما يزال يهبط في قاعهما على بعد مذهل من السطح.. لقد وضعه الزنجي بنفسه هناك، وقلبه على ظهره وقال له من الداخل فيما كان يعبر شرفة المطعم:

ـ هل كنت تريدني أن أقاتلك حقاً يا سيدي؟. أعني هكذا من كل قلبك.. لقد خطر لي أن الأمر كله مجرد مزاح من جانبك.. هل تعتقد أنني بغل مضحك أيضاً؟..

ثم قال له مؤكداً:

ـ المسيح زنجي مثلي.. ذلك أمر لا يدعوك إلى الغضب.. إنه صياد زنجي مثلي، وإذا كنت لا تصدقني فاسأل المسيح نفسه.. إنه لن يخاف من قبضتيك أيضاً.

وعندما استدار الزنجي بعد ذلك في هدوء، وأسند ظهره على جدار المدخل لكي يهدىء آلامه كان كل شيء قد بدا فجأة على ما يرام، وكان بوسعه أن يبوح لنفسه بأنه في الواقع قد كسب

الرهان كله في نهاية المطاف.. فقد كان ينتظر رئيس جمعية أصحاب القوارب لكي يودع لديه فرنكاته الثلاثة بمثابة دفعة أولى في ثمن قارب إضافي، وكان ينتظره في الميعاد بالضبط قادماً لتوه من رحلته الهائلة الموغلة في القدم التي بدأت ذات يوم عندما وضع قدمه في قارب أحد الصيادين وأبحر معه إلى حيث لا يدري مقابل رطلين من السمك في الأسبوع.. كانت أطول رحلة في العالم على الإطلاق، وكان قد عبرها وحده في قارب طوله أربعة أمتار، وعبر المرافىء المزدحمة بحراس البلدية وقوارب الايطاليين المزودة بالمحركات والشباك العملاقة، ووصل إلى مدخل سوق السمك في سوسة ووقف ينتظر رئيس الجمعية دون أن يتأخر عن ميعاده دقيقة واحدة.. لقد وصل بمجدافيه. هكذا دون معونة من المحرك.. ووصل في الميعاد بالضبط على مرأى من العاصفة والأسياد والصبي الميت والفقي والصيادين والأصوات الغامضة التي تصدر من قاع البحر، وقد واجههم جميعاً عندما اختاروا أن يقفوا في طريقه دون أن يحيد عنه بمقدار شبر واحد، وواجه البحر ووضع ظهره ضد ظهر السلحفاة العظمي واستعادها من بين ذراعيه.. وواجه العاصفة وترك لها قاربه على مرأى من الصيادين عند صخور المدخل مباشرة، ورأى الصبي الميت يركض بين قدميه فوق التلة المحاطة بالمياه وترك له حبله لكي لا يموت بالجوع.. لقد كسب الرهان كله في نهاية المطاف.

كان الزنجي يختار أفضل فرصة لديه لتصفية حسابه دون أية خسائر، وكان يسند ظهره المتصلب إلى جدار السوق ويراقب أعداءه ينقلبون واحداً بعد الآخر إلى جرذان صغيرة دقيقة الأنوف تركض يائسة فوق التلة المقفرة بين نباتات الديس، وقد وزع عليهم قطعاً من حبله المدهون بالشحم وأعطى امرأته قطعة إضافية في

الخفاء..

وعند الظهر كان رئيس الجمعية لم يحضر بعد، وكان الزنجي قد انتقل من مكانه أمام المدخل الرئيسي وجلس بجانب جدار السوق المواجه للبحر لكي يشهد تراجع العاصفة وراء النتوء الجبلي. كان ذلك يمنحه فرصة أفضل لاحتمال الانتظار، ولقد تذكر أن رئيس جمعية أصحاب القوارب متزوج من أربع نساء وأن رجلاً في مثل ظروفه قد يضطر إلى أن ينام عادة طوال النهار. ثم اعتراه النزق ومدَّ عنقه إلى الأمام وقال في ذات نفسه:

ـ أربع نساء؟.. أعني هذه جنة حقيقية.. هذا ما أقوله.. وإن بعض الناس لا يملك سوى خادم واحدة مهدلة الأذنين.. انظر.. أربع نساء!.. إنك تستطيع أن تفعل بهن ما تشاء وإذا تشاجرت معك واحدة منهن ذهبت إلى الأخرى، هكذا دون أن تلتفت وراءك.

وبعد ذلك أسند الزنجي رأسه على الجدار، ووضع نساءه الأربعة بجانبه، وترك امرأته المهدلة الأذنين تجلس وحدها في وسط الغرفة، وشرع ينصت إليها في الخفاء فيما كانت تلوم نفسها على الشجار معه من أجل سلاحف البحر. كانت تنال عقابها مقابل سلوكها العدائي طوال السنين المؤلمة الماضية، وكانت سلاحف البحر لم تجدها نفعاً.

وفجأة وقف أحد ما عند المدخل الجانبي ثم قال بصوت عال:

ـ هذا مسعود الطبال يجلس هنا.. هل تبحثون عن العبد؟.. إنه يجلس هنا في الشمس.

وأدار الزنجي عنقه ونظر إليه ساخطاً، ثم سمع الأصوات القادمة من داخل السوق، وتبين منها صوت أحد الصيادين يتحدث عن

قاربه، واستدار مرة أخرى على غير هدى ووقف يترنح عند المدخل.. وبعد ذلك التفت مصعوقاً وانطلق يجري في اتجاه الخليج.

كانوا يتحدثون عن قاربه.. وكان ذلك يعني على وجه اليقين أن الريح جرفه في اتجاه الصخور، وأن شيئاً ما قد حدث في الخليج فجأة رغم هبوب الريح الشرقي. وقد جرى الزنجي بكل قطرة حياة في عروقه، وعبر الطريق العام متصلب الظهر، واخترق نباتات الديس الممتدة وراء التلال، وتذكر أنْ الصبي لم يربط مرساته الإضافية إلى مؤخرة القارب، وعرف أن الريح جرفه من الخلف وكسره على الصخور، وقال له في الخفاء:

ـ الآن سنذهب إلى مكة.. الآن سنذهب إلى جهنم. ثم صعد التلة ورأى قاربه ما يزال مربوطاً عند مدخل الخليج.

لم يكن الريح قد جرفه بمقدار شبر واحد، ولم يكن الصبي قد نسي أن يربط مرساته الإضافية. كان ما يزال يتأرجح في هدوء فوق الأمواج الراكضة عبر المدخل، وكانت بعض النوارس قد حطت فوقه وشرعت تتأرجح معه.. ومسح الزنجي عينيه من رذاذ البحر، وتأمله مرة أخرى ثم أدار عنقه في حيرة وسأله بصوت عال:

ـ ماذا حدث؟..

وبعد ذلك رأى ما حدث..

كان الفقي يقف بين مجموعة من الصيادين ويلوح بيديه فوق الشريط الرملي الضيق الذي هجرته الأمواج لتوه، وكان الصبي يقف عارياً متكئاً على مجدافيه فوق إحدى التلال الرملية، فيما أطل المزارع الأعرج برأسه وراء الطريق العام، ووقف صاحب المقهى

بالقرب منه واضعاً يديه فوق بطنه.. وكانت الطيور تحلق فوقهم في فضول..

وتنفس الزنجي ببطء وهبط التلة متعمداً أن يميل برأسه إلى الوراء لكي لا يحدس أحد أنه يلهث من التعب، ثم عقد يديه خلف ظهره وابتسم لنفسه في الخفاء فقد خطر له أنه يعرف ماذا حدث، وخطر له أيضاً أن رئيس جمعية أصحاب القوارب الذي وقف بدوره بين الصيادين ما يزال يحتاج إلى زوجة خامسة لكي ينشغل حقاً عن حشر أنفه في شؤون الناس.

ثم رآه الصبي ورمى مجدافيه فوق التلة وانطلق يجري في اتجاهه فيما استدارت بقية الرؤوس مرة واحدة وشرعت تراقبه في صمت مطبق، ووضع الزنجي يده على كتف الصبي ثم دفعه برفق لكي يمشي بجانبه دون أن يتوقف للحديث معه.. كان يعرف ما حدث، وكان يريد أن يراجع خطته في هدوء.

ومشى الفقي لملاقاته في وسط الطريق فارداً ذراعه أمامه، ومشى وراءه الصيادون، ورئيس جمعية أصحاب القوارب وصاحب المقهى والمزارع الأعرج أيضاً الذي لم يكن يفهم كلمة واحدة مما يقال.. وتبعهم نورس واحد أسود الرأس.

ثم وضع الفقي اصبعه تحت أنفه وصرخ بأعلى صوته:

ـ أنا قلت لك ذلك ألف مرة وأقوله لك الآن أيضاً.. إن أولادنا ليسوا عبيداً لك، وإن عليك أن تتركهم وشأنهم. أنت تستطيع أن تربط قاربك الأسود بنفسك.. هل سمعتني؟..

وحشر صياد عجوز رأسه في الزحام وقال بجفاء:

ـ ماذا دهاك أيها العبد؟.. هل تعتقد أن أحداً لا يستطيع أن يؤدبك.. أولادنا لا علاقة لهم بسلاحفك السوداء.. لماذا لا تفعل

ذلك بنفسك؟..

وسأله الزنجي من أبعد نقطة في السماء:

ـ ماذا حدث؟.. انتظروا.. قولوا ماذا حدث..

ثم ضغط بيده على كتف الصبي وسأله متعمداً أن يريهم أنه لا ينتظر إجابة منهم..

ـ هل طلبت منك أن تربط قاربي؟.. قل.. هل كنت أريدك أن تنقله من مكانه؟.. كف عن البكاء..

كان يعتقد أن الأمر يمكن حزمه بسؤال الصبي، وكان يظن أنه يعرف حقاً ما حدث وأن الريح خدع الصبي وجعله يحضر لكي يربط القارب في وسط الخليج متطوعاً، ثم رآه الصيادون أو الفقي وشرعوا يطاردونه معتقدين أن الزنجي نفسه بعثه لأداء هذه المهمة مغامراً بحياته لكي يتفرغ للسكر في مطعم الرومية.. لكن ذلك لم يكن في الواقع ما حدث بالضبط..

وفجأة مدَّ أحد الصيادين يده وجذب الصبي جانباً ثم دفعه حتى سقط على وجهه وقال له بحنق:

ـ اذهب لكي تلبس ثيابك..

فيما مد الفقي عنقه وقال مرة أخرى:

ـ لقد قلت لك ذلك ألف مرة.. إننا نريد أن نعاديك ولكن عليك أن تبتعد عن أولادنا.. إننا في المرة القادمة سوف نؤدبك بالعصا..

وتراجع الزنجي خطوة صغيرة إلى الوراء وأجال عينيه بين الصيادين والفقي والمزارع الأعرج ثم قال في ذل:

ـ ماذا حدث؟ أعني لماذا يصل الأمر إلى هذا الحد؟

وفي اللحظة التالية ظهر ذكر السلحفاة في وسط الخليج، كان يخوض على غير هدى بين قوارب الصيادين، وكان يحمل الله والسموات السوداء فوق كتفه..

وقد رآه الزنجي يطفو فجأة على قمة الموج، ثم رآه ينهض بظهره العظيم وسط المياه المحملة بالزبد الفضي، وابتلع ريقه والتزم الصمت..

كان الصبي أول من رآه يدخل الخليج منساقاً مع التيار العنيف عند المدخل، وكان قد ذهب لإحضار المجدافين وقرر أن يطارده على مرأى من أصدقائه الذين يعملون معه في سوق السمك زاعماً لهم أنه نفس السلحفاة الذي قتل «منصور» وأنه يستطيع أن يقلبه على ظهره.. وقد تحدث الصبي عنه إذ ذاك باعتباره سلحفاة أنثى، ودعاها فكرونة مجنونة قاتلة لكي يقنع أصدقاءه بأن «منصور» في الواقع لم يكن نداً لهما.

لكن الصبيان سخروا منه، واتهموه بالحماقة، وأخبروه واحداً بعد الآخر أنه لا يستطيع أن يغمس قدمه في الماء دون أن يتجمد من الخوف، ثم اعتراهم الذعر عندما رأوه يخلع ملابسه ويجر مجدافيه الثقيلين عبر نباتات الديس، وانطلقوا يركضون إلى المقهى وأخبروا الصيادين، وأخبروا الفقي الذي كان يلعب السيزة وراء جدار الجامع.

وكان الفقي أول من أدرك أن السلحفاة ليس أنثى، وقد رآه أول الأمر يسبح ببطء عند مدخل الخليج، ورأى الصبي يجلس في قارب الزنجي ويلاحقه بمجدافه متكئاً على حافة الدفة، ثم ابتعد ذكر السلحفاة في اتجاه وسط الخليج وأدرك الفقي على الفور أنه كان يتحقق من قارب الزنجي.. لقد توقف بجانبه بالذات دون بقية

القوارب المزدحمة على طول المنطقة..

وقرص المزارع الأعرج عينه فوق حافة الطريق العام وسأل الزنجي في فضول:

ـ ماذا حدث، هل تشاجرت مع الفقي أيضاً؟.

كان الفقي أفضل أصدقائه رغم أن أحداً منهما لم يكن يفهم ما يقوله الآخر، وكان البئر الواقع على طرف الحد الشرقي للمزرعة يضعهما دائماً في صف واحد.

ومرة أخرى تراجع الزنجي خطوة صغيرة إلى الوراء وأدار ظهره للمزارع الأعرج في ازدراء ثم قال مؤكداً:

ـ أنا لم أطلب من الصبي أن يربط قاربي أو ينقله من مكانه، ولم أعطه المجدافين، ولا أريد أن يهددني أحد ما بعصاه.. إن الأمر لا يجوز أن يصل إلى هذا الحد..

لكن الأمر كان قد وصل إلى هذا الحد، وكان الفقي في الواقع يحمل عكازه في يده.. لقد حمله طوال حياته، ودافع به عن الضعفاء واليتامى والله والأسياد وسلاحف البحر.. وقد حمله إذ ذاك أيضاً ورفعه في وجه الزنجي، وقال له في يأس:

ـ إذا كان ظهور هذا المخلوق في الخليج لا يكفيك، فأنا أقول إنك عبد ضال.. لماذا تعتقد أنك تخيفنا؟.. اسمع يا مسعود الطبال، أنا أقول لك أمام الله والناس، إننا احتملنا منك ما يكفي، وإننا لا نمسك بسوء فالنبي وصانا على سابع جار.. ولكن لا تعتقد أننا نهابك أو نهاب صديقتك الرومية.. إن السلاحف لا تباع عندنا لأحد..

وتراجع الزنجي خطوة أخرى.. لقد بدأ يتبين الآن ما حدث،

وبدأ يحس بالشيء الغامض يعود لكي ينكسر في حلقه، فيما قال له رئيس جمعية أصحاب القوارب:

ـ ماذا يهمك من أمر الرومية؟ إنها تستطيع أن تنال ما تحتاجه من مكان آخر أو تشتري من أسماكنا.. هل تعتقد أن السمك لا يصلح لمطعمها؟.

وهزَّ الزنجي رأسه في يأس وتراجع خطوة أخرى إلى الوراء باحثاً عن منفذ يمنحه فرصة لاستعادة صفاء ذهنه، ثم رأى الطائر الأسود يحلق مبتعداً في اتجاه الحاجز الصخري وسأله بصوت عال:

ـ هل سمعت هذا الهراء.. ماذا بوسعك أن تقول؟.

كان يتحدث حقاً إلى الطائر الأسود الرأس، وكان لا يعني شيئاً آخر على الإطلاق، لكن رئيس جمعية أصحاب القوارب اعتقد أنه يسخر منه ولوح له بيده ساخطاً فيما كان الفقي يقوّل له مواسياً:

ـ دعك منه.. هذا عبد ضال.. إنك لا تعرفه.

ثم رفع عكازه وقال للزنجي:

ـ هراء.. هل تعتقد أن ما نقوله لك مجرد هراء؟ هل العاصفة هراء؟ هل ذكر السلحفاة هراء؟ هل الله هراء؟ لماذا يذهب تيس مثلك إلى هذا الحد؟..

ثم ارتكب الفقي خطأ مميتاً دون أن يدري..

ورفع عكازه في الهواء ولطم الزنجي على وجهه، ورأى عينيه بعد ذلك تراقبانه من أقصى السموات مثل نيزكين ساخطين قادمين لتوهما من الجحيم، ثم رأى ذراعه يهوي من علوه الشاهق ويلمس وجهه في لحظة خاطفة خالية من الألم، وخيل إليه أن الزنجي حمله فوق جناح خفي وانطلق يحلق به على حافة السحب الثلجية، ثم

سمع الصوت المكتوم واحتضن الرمل المتضوع برائحة البحر وتنهد في هدوء.. كان وجهه مهشماً إلى حد يثير التقزز.. وكان يستلقي على ظهره قرب الموضع الذي ترك الزنجي سلحفاته فوقه ذلك الصباح.

وانداحت حلقة الصيادين فوق الساحة الرملية مثل حزمة مقطوعة الرباط من الأحطاب المتيبسة، ثم عادت فالتأمت مرة أخرى حول جثة الفقي، ودفنت الشمس رأسها في السحب، وتعلقت الطيور واجمة فوق الخليج، فيما مسح الريح الشرقي بيده الثلجية على وجه العالم وهمس بصوت خافت:

ـ لقد قتل العبد خادم الله.. لقد قتل العبد خادم الله..

وبعد ذلك تبعته الطيور وحبات الرمل والأمواج المتكسرة على الحاجز الصخري ونباتات الديس والسحب والصيادون وسمعهم الزنجي يهمسون في رتابة مثل جوقة واحدة غير مرئية:

ـ لقد قتل العبد خادم الله.. لقد قتل العبد خادم الله..

وهز لهم رأسه غير مصدق ووقف يترنح في مهب الريح، ثم رأى الفقي يتنفس ببطء بين ذراعي أحد الصيادين وتراجع خطوتين صغيرتين إلى الوراء وقال بذل:

ـ ابعدوه عني.. ابتعدوا عني جميعاً.. إنني لا أريد أن أنال أحداً بسوء، ولكني أحذركم.. أنا سأمزق وجه أي كلب منكم تحدثه نفسه بأن ينحاز إلى جانبه.

كان يعرف على وجه اليقين أنه لا يستطيع أن يمزق وجه أحد، وكان ظهره المضحك قد عقره في الخفاء بمجرد أن حرك ذراعه، وقصمه قطعتين، وأولج مطواته النارية تحت جلده ثم قال له:

ـ العبد نخلة خاوية.. العبد يسقط على وجهه بدفعة واحدة..

لكنه كان يعرف أن الصيادين لم يسمعوا شيئاً، وكان يعول على ذلك وحده..

وفي لحظه ما توقف الريح في مكانه.. وتوقفت الطيور أيضاً، ونباتات الديس، ورفع ذكر السلحفاة رأسه في وسط الخليج وشرع يراقب بدوره ما يوشك أن يحدث، فيما قرص الزنجي عينه لكي يحميها من خيط الدم المنساب عبر جبهته ووقف يترنح صامتاً، كان الصمت أعظم أسلحته على الإطلاق..

ثم أصدر الفقي صوتاً خافتاً ومد ذراعه في الهواء ونهض متكئاً على كتف أحد الصيادين، وراقبه الزنجي بريبة وقال في ذات نفسه محاولاً أن يضع خطته على مسمع من ظهره المضحك:

ـ دعه ينهض.. أنت تستطيع أن تصارعه على الأرض أو تمسكه من بيضاته..

لكن الفقي لم يقترب منه.

لقد وقف ينظر إليه لاهثاً، ثم أجال عينيه بين الصيادين، فيما كان رئيس جمعية أصحاب القوارب يمسح وجهه المهشم بمنديله، واستدار بعد ذلك صامتاً وانطلق يترنح في اتجاه القرية، فقد بدا له بوضوح أن أحداً ـ غير الله ـ لن ينحاز إلى جانبه ضد الزنجي إذا عاد لقتاله مرة أخرى، وبدا له أيضاً أن ذلك وحده لم يعد كافياً.

وتبعه الزنجي بعينيه ثم عاد فنظر إلى الصيادين واحداً بعد الآخر وقال بهدوء:

ـ ماذا كان بوسعي أن أفعل؟.. لقد ضربني بعصاه، هكذا

كأنني مجرد حمار في اسطبله.. أنا عجوز أكبر منه سناً..

وإذ ذاك نفخ الريح عبر الساحة الرملية، وتحركت نباتات الديس، وعاد كل شيء إلى وضعه المألوف ومد أحد الصيادين الشبان عنقه إلى الأمام وقال متلمساً طريقه بحذر:

ـ لماذا تدعونا كلاباً؟.. أعني ماذا دهاك؟.. هل تعتقد أنه يهمنا ما يحدث بينك وبين الفقي.. اسمع نحن لسنا أبناء عمه..

وعندما أطرق الزنجي برأسه والتزم الصمت مبدياً اعتذاره غامر الصياد بالخروج من وسط الحلقة ولوح له بيده في الهواء وقال متخلياً عن حذره:

ـ الكلب الحقيقي هو الذي يعيش على فضلات مطعم الرومية.. هذا ما أقوله لك. نحن لا يهمنا ما تفعله مع الفقي أو سلاحفك القبيحة، ولكن تعلم كيف تخاطب الناس إننا لن نحتمل ذلك من عبد مثلك مرة أخرى.

وحدس الرومي الأعرج أن الصياد يتحدى الزنجي للقتال بدوره وقال له مشجعاً:

ـ علي.. اكسر له أسنانه اكسر عنقه..

ثم تذكر قصعة السلحفاة وقرر أن يلتزم جانب الحياد، وكان يعتقد أن كل مواطن اسمه «علي».

وتراجع الزنجي خطوتين صغيرتين إلى الوراء لكي يزيح تصلب ظهره في جانب واحد ثم استدار على الجانب الآخر ومنح الصياد ضحكة قصيرة خافتة وانطلق في اتجاه طرف الخليج الغربي دون أن يقول له شيئاً.. كان يعرف أنه يهاب صمته مثل بقية الصيادين، وأنه يحاول جاهداً أن يتغلب على خوفه ويتحداه للعراك مدفوعاً

بغضبه لما حدث لمواطنه الفقي، وكان يعرف أيضاً أنه شرب من النبيذ في المقهى ما يكفيه لارتكاب هذه الحماقة، وإنه قد يتغلب على خوفه في أية لحظة ويجره فجأة إلى معركة خاسرة، وكان لا يريده أن يذهب إلى هذا الحد.

وتأمله الصياد برهة ثم صرخ في أعقابه:

- الكلب يأكل فضلات المطاعم.. الكلب يأكل لحم الخنزير.. هل سمعت ذلك أيها العبد.. لماذا تولي الادبار؟

ثم رأى الزنجي يختار الطريق القديم المؤدي إلى الطرف الغربي للخليج، واستدار طائعاً وشرع يضحك ببرود فقد بدا من الواضح أنه يستطيع أن يتبعه إلى ذلك المكان المنعزل إذا كان يرغب في قتاله حقاً، وكان النبيذ لم يدفعه إلى أن يفقد رأسه إلى هذا الحد.. وقال له صاحب المقهى متظاهراً بالرغبة في تهدئته:

- دعه وشأنه.. ما الذي يهمك من أمر الفقي.. إن أبناء عمه كفيلون بالدفاع عنه، وأنا أقول إنه يستحق ما ناله من العقاب، وإنه لم يكف قط عن مضايقة هذا العبد السيىء الحظ.. أعني ما الذي يهمه من السلاحف؟..

ثم أطلعت الشمس رأسها من بين السحب.. وانعكس الشعاع الفضي المتوهج في وسط الخليج وشرع الريح يغسله بموجاته الحادة الرؤوس فيما كانت صخور المدخل تنهض ببطء على سطح المياه وتستقبل أول أسراب النوارس العائدة من قرية الصيادين.

وبحث الصبي العاري عن مجدافيه فوق التلة، ثم لبس ثيابه ووقف يراقب تراجع العاصفة مستشعراً ندماً عميقاً تجاه ما فعله بصديقه الزنجي، فقد كذب عليه وراء ظهره، وزعم للفقي والصيادين أنه بعثه لكي يربط له قاربه في وسط الخليج قبل أن

تحطمه العاصفة وأخبره أيضاً بأنه يستطيع أن يفعل ذلك لأنه أكثر مهارة من بقية صبيان السوق، ثم زعم لهم أن مسعود الطبال كان ينوي أن يربط قاربه في وسط الخليج منذ الصباح، وأنه أقنعه بأن يؤجل ذلك حتى ترتفع الريح لأنه كان يعرف أن العاصفة لن تهب على أي حال.

كان الصبي قد اختلق قصة معقدة كاملة التفاصيل عن وصوله إلى قارب الزنجي قرب مدخل الخليج، وكان قد اضطر إلى ارتكاب هذه الحماقة بعد أن فاجأه الفقي في القارب واستدرجه إلى الساحة الرملية وطفق يقرص له أذنه ويؤنبه على التعرض لذكر السلحفاة.. لقد قرص له أذنه إذ ذاك حتى أرغمه على الاعتراف بأن السلحفاة كان أصفر الرأس، وأن الزنجي طلب منه في الخفاء أن يطارده خارج الخليج، لكنه بدأ يحس الآن بالغضب تجاه الفقي والصيادين وبات يعتقد أنهم أرغموه على الكذب ضد صديقه الزنجي، وقد راقبهم ساخطاً فيما كانوا يولونه ظهورهم عائدين في اتجاه القرية، ثم بصق وراءهم وقال بعناد:

ـ ذلك السلحفاة ليس ذكراً على الإطلاق.. أنا رأيته عن قرب.. إنه سلحفاة أنثى، أعني هكذا مثل السلحفاة التي أحضرها العبد إلى السوق، وقد ضربتها على رأسها بالمجداف..

ثم تذكر أنه لم ير رأسها قط، وأضاف واجماً:

ـ لقد ضربتها على ظهرها وقد كانت سلحفاة أنثى.. إن ذلك الفقي لا يعرف شيئاً عن السلاحف.. وأنا أقول إن الله لا يعتبره فقياً حقيقياً على أي حال.

وفي لحظة ما بدا أن الزنجي سمعه فوق الرف الصخري القائم

عند طرف الخليج، وأنه التفت إليه وهزّ له رأسه موافقاً، لكن ذلك بالطبع كان مجرد صدفة، وكان الزنجي قد التفت لكي ينظر إلى جدار سوق السمك المواجه للشاطىء، وهزّ رأسه الملوث بالدماء مغالباً رغبة طارئة في الضحك.. فقد تذكر أنه جلس هناك مع زوجاته الأربع في انتظار رئيس الجمعية..

وتذكر أن كل شيء بدا إذ ذاك على ما يرام، وأنه صفى حسابه كله بدون أية خسائر، وباح لنفسه بأن رحلته الهائلة الموغلة في القدم قد انتهت في الميعاد بالضبط، وأنه بات في وسعه أن يقف فوق التلة ويوزع قطعاً من حبله المدهون بالشحم على أعدائه الجرذان، ويترك امرأته تقف على قدميها الخلفيتين وتدعك ساقه بأنفها الأفطس لكي تحصل على قطعة إضافية، لقد بدت نهاية رحلته إذ ذاك عند جدار سوق السمك حقيقة مضحكة واقعة، لكنه أدرك الآن أنها لم تكن نهاية حقيقية على أي حال، وأن جدار السوق نفسه كان مجرد وهم طارىء مقام في وسط البحر.

ورفع الزنجي رأسه إلى السماء ونظر إلى الله.. كان يعتقد أنه يستطيع أن يراه، وكان قد أدرك الآن أنه يحتاج إلى أن يراقبه صامتاً، ويضع كل شيء آخر وراء ظهره، ويضع ذكر السلحفاة، ويضع الفقي وأبناء عمه المسلحين بالعصي وامرأته والصبي الميت والعاصفة وفرنكاته الثلاثة.

لقد بدا ذلك كله فجأة مجرد لعبة غامضة تحدث في مكان ما بين الحلم وبين اليقظة، وبدا أن الله وحده هو الفرق الحقيقي الذي يستطيع أن يدله على الطريق كما تدله المنارة البحرية على مكان المدخل بين آلاف النجوم الخادعة. ولقد كان يعرف أن المنارات البحرية ترسل ضوءاً مختلفاً عن ضوء النجوم، وكان يعرف أن الله

يفعل ذلك أيضاً، وأنه يستطيع أن يكتشف طريقه إذا وضع كل شيء جانباً، وبحث عن الشعاع الأكثر توهجاً الذي يومض ولا يومض عند المدخل بالضبط.

وفي البداية بدأ الزنجي يخسر بيسر.. ورأى بعيني رأسه أن الله في الواقع وقف ضده على الدوام، وأن إصابته بالعقم عقاب لم يكن بوسع أحد أن ينزله به سوى الله نفسه وأن ظهره المتصلب جزء من ذلك العقاب، وكذلك ذراعه المكسور.. ثم تذكر هجرته المحزنة إلى قرية الصيادين في سوسة، وتذكر الفقي والسلحفاة المريب الذي يخوض في الخليج، ولجأ على الفور إلى الصبي الميت متعمداً أن يتذكر أنه أيقن في نهاية المطاف بأنه مجرد حلم عابر، وأنه لم يكن شيئاً في الواقع سوى جرذ جائع محاصر فوق التلة المقفرة، لكن أحداً ما قال في الداخل ان الجرذ نفسه علامة مريبة، وأن حبله الذي ربط به سلحفاته قد انقطع على أي حال، ثم قال له إن الجرذ مجرد علامة خادعة مريبة.

وإذ ذاك استلقى الزنجي على ظهره فوق صخور الطرف الغربي وطفق يراقب الله واجماً..

كان لا يملك شيئاً في صفه سوى الجرذ، وكان قد خسره في غمضة عين، وخسر قطعة الحبل، وخسر انتصاره المؤقت على العاصفة أيضاً بعد أن اكتشف أنها في الواقع لم تأت في أعقابه لكي تكسر قاربه بل لكي تحضر له ذكر السلحفاة ثم قرص عينه فجأة واكتشف بهدوء أنه خسر على الدوام، وأن ظهره المتصلب كان مجرد علامة خادعة أخرى لما حدث له من الخلف..

فقد كان الله يتعقبه في الخفاء..

هكذا فوق السطح مباشرة كما يتعقب هو سلاحفه على سطح

المياه، وكان قد تركه يخوض مذعوراً عبر المناطق الوعرة، وتركه يخوض في المطر المريب المنتن والأصوات القادمة من قاع البحر والعاصفة والصبي الميت والخوف البدائي الخالي من العزاء.. وعندما وصل إلى منطقة المياه العميقة مستشعراً نجاته من الخطر طعنه الله بحربونه وقلبه على ظهره.. كان يعامله مثل أي سلحفاة.

ومسح الزنجي بيده فوق البقعة الرملية الصغيرة التي عثر عليها بجانبه وخط في وسطها دائرة ثم قطعها بحربونه الوهمي مستشعراً ذله المهين فقد تذكر فجأة أن الله لم يعامله في الواقع مثل أي سلحفاة، بل كان يذله على الدوام، وكان يفعل به ذلك بدل أن يبيعه لمطعم الرومية.. وقد أذله أمام امرأته وجعله يصرخ على مسمع منها ويعري لها ظهره المضحك لكي تدلكه بالخل، وأذله أمام الفقي والصيادين في المقهى، وأذله في مطعم الرومية أيضاً، وخلقه زنجياً لكي يذله على الدوام، وجعل صياد الجيلاطين يتجرأ على دعوته لكي يسكر معه، وأحضر له ذكر السلحفاة على مرأى من سكان القرية، كان الله لا يلتزم تجاهه بسلوك صيادي السلاحف.

وفجأة حط أحد النوارس بجانبه ثم طار مذعوراً عندما رآه ممتداً على الصخور، وتتبعه الزنجي بعينيه عبر الخليج وسمعه ينعق ساخطاً، وشرع يقلده دون أن يدري.. ثم تذكر شيئاً ما وعاد يراقب السماء واجماً.. فقد خطر له أن ذلك الطائر هرب مذعوراً دون ثمة مبرر.

وفي لحظة ما وضع الزنجي ذراعيه تحت رأسه ونظر إلى وسط السماء بالضبط وقال ساخراً:

ـ لقد كنت أزمع أن أمسكه من جناحيه.. هذا ما كنت أزمع أن أفعله، ثم أقصف عنقه وابتلعه بريشه مرة واحدة، أعني لماذا لا

يلوذ بالفرار إذا رأى وحشاً أسود مثلي يراقبه من الخلف؟..

ثم نهض واقفاً ومشى إلى حافة المياه لكي يغسل جبهته من خيوط الدم المتيبس.

كان لا يتحدث عن الطائر، بل كان يتحدث عن نفسه، وكان قد أدرك عبر لحظة خاطفة متوهجة بالغضب أن وحدته قد خدعته، وأنه بدأ يعد خطته لكي يولي الأدبار متظاهراً بالعجز عن مواجهة عدوه الخفي، وأن خوفه المزري يريد أن يجره عبر الخليج ويجعله ينعق ساخطاً دون ثمة مبرر. وكان الزنجي مستعداً للهرب في أي لحظة، لكنه لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك دون ثمة مبرر.

ثم تذكر الفقي.. وتذكر أنه ذهب لكي يحضر أبناء عمه من السوق، وتذكر الصيادين والمزارع الأعرج وبصق في البحر واستدار عائداً فوق حافة الرف الصخري الأملس دون أن يحيد بعينيه عن موضع الشمس.. كان ينتظر منها أن تقول له شيئاً ما، وكانت قدماه الحافيتان تتلمسان طريقهما بيسر. وعند المنحدر القائم في نهاية الطرف الغربي للخليج قالت له الشمس:

ـ هذا حسن أيها الصياد.. لقد عرفت الآن ما تنوي أن تفعله، وأنا أقول لك إنه حسن..

لم يكن ذلك يخص الفقي أو أبناء عمه أو الصيادين.. ولم يكن يخص أحداً على الإطلاق سوى الزنجي وحده، فقد قرر أن يخرج للقاء الله في العراء، وقرر أن يذهب إليه مسلحاً بحربونه ويغرسه في عنق السلحفاة ويقلبه على ظهره ثم يرى بنفسه ما يريد الله أن يفعله. كان يمنحه فرصة عادلة من جميع الوجوه، وكان يخرج للقاء السلحفاة وحده متعمداً أن يعتبر حربونه سلاحاً عادياً في مقابل ظهره العظمي الصلد، وكان الله يستطيع أن يذله كما يشاء.

وعندما عاد إلى بيته عبر أحد الشوارع الخلفية، وجلس محني الظهر بجانب البئر، وشرع يوثق رباط حربونه بحبل إضافي بدأ يرى على وجه اليقين أن الفقي لم يعد يحتاج في الواقع إلى أن يطارده بأبناء عمه، وأن الأسياد أيضاً والصبي الميت والمطر المريب والأصوات القادمة من قاع البحر قد تنحوا جانباً مرة واحدة ووقفوا في انتظاره على الساحة الرملية لكي يشاهدوا ما يوشك أن يحدث.. فقد منحهم جميعاً فرصة عادلة ورضي أن يخرج لقتال سلحفاتهم في مياه الخليج الضحلة بين الأجراف الناتئة بذراعه المكسور وظهره المتصلب دون أن يتأخر عن ميعاده دقيقة واحدة، وكان يعرف أن مسرح القتال قد أعد لكي يعمل ضده لكنه اعتبر ذلك أيضاً فرصة عادلة.

واقتربت منه امرأته حاملة في يدها علبة مليئة بمسحوق القهوة، وطفقت تحشو جرحه الغائر فوق جبهته لكي توقف النزيف، ثم رفعت قميصه من الخلف وبدأت تدلك له ظهره وتتحدث بلا انقطاع حابسة دموعها. كان الصبي قد أخبرها بما حدث فوق الساحة الرملية وأخبرها أيضاً أن السلحفاة عبرت مدخل الخليج أمامه عند الظهر، وأنه ضربها على ظهرها بالمجداف وكان بوسعه أن يقلبها فوراً لولا أن الفقي أرغمه على مغادرة القارب وقرص له أذنه، لكن المرأة الزنجية لم تصدق شيئاً من قصته المعقدة فقد كانت تعرف أن السلحفاة ظهر في الخليج منذ الصباح الباكر، وأنه ليس سلحفاة أنثى، وكانت تعرف أيضاً لماذا يوثق زوجها حربونه بحبل إضافي.

وفجأة مدَّت عنقها إلى الأمام مفرغة جهداً هائلاً لكي تسيطر على ذعرها وقالت ببطء:

ـ لقد جاء الفقي إلى هنا مرتين وسأل عنك.. أعني جاء مع ثلاثة رجال آخرين وسألوا عنك، وقد رأيتهم من ثقب المفتاح.. ثم فغرت فمها وشرعت تراقبه مدهوشة، فقد رأت بوضوح أنه لم يكن ينصت إليها على الإطلاق، وأن الفقي وأبناء عمه لا يعنون شيئاً بالنسبة له، وبعد ذلك سمعته يقول بهدوء:

ـ إنهم يبحثون عني لكي يضربوني بعصيهم، أعني رغبة في الدفاع عن الله.. هذا كل ما في الأمر.. لقد جرب الفقي أن يفعل ذلك وحده ثم قرر أن يحضر أبناء عمه.. هل قلت لهم أنني هربت إلى بنغازي؟..

ولمست امرأته أسفل ظهره دون أن تقول شيئاً. كان هدوءه المريب قد أذهلها، وكانت قد اكتشفت لتوها أنه في الواقع أكثر وحدة منها، وأنها لو كانت في مكانه لهربت إلى بنغازي حقاً دون إبطاء.. ثم خطر لها أن الله نفسه يشده إلى الخليج المشؤوم بحبل غير مرئي، ولم تستطع أن تحبس دموعها، فيما قال الزنجي بود:

ـ ما الذي يدعوك إلى البكاء؟ هل تعتقدين أننا نستطيع أن نهرب إلى بنغازي حقاً؟.. أعني كيف نهرب من الله؟..

ثم لوح بيده ووضع حربونه بجانب الجدار وقال لها في نفس واحد:

ـ الله يجد الصياد في الخليج، سواء في بنغازي أو في سوسة.. أعني يجده من الداخل.. هذا ما أقوله لك.. إنه لا يبحث عنه في صحبة أبناء عمه المسلحين بالعصي، ولا يطلق الرياح المضحكة في أثره، ولا يسلط عليه سلحفاة بلهاء.. الله يجد الصياد من الداخل، ويجعله يصرخ مثل البنت.. لقد جربت ذلك بنفسي لأنني كنت خائفاً منه دون ثمة مبرر، ولأن فقيك ابن الزانية كان يلاحقني في

الخفاء.. انظري بنفسك.. إنه يريد أن يطردني من سوسة لكي تبقى سلاحف البحر بضاعته وحده، أعني هذا ما يريده، فالسلاحف جزء من حانوته غير المرئي الذي يبيع فيه الأحجية والأسياد وغضب الله، والمرء عندما يأكل سلاحفه في المطعم يأكل أيضاً قطعة من إلهه.. هل تصدقين ما أقوله لك؟..

كان قد سمع ذلك من المرأة الرومية ذات مرة عندما أبدى الفقي معارضته لتزويد مطعمها بلحم السلاحف، لكنه لم يفهم ما قصدته إذ ذاك ولم يصدقها أيضاً.. لقد عاد فاكتشفه بنفسه فجأة على صخور الطرف الغربي.

وأشاحت امرأته بوجهها وذهبت لكي تجلس بعيداً عنه فوق عتبة المطبخ متظاهرة بأنها تريد أن تتركه وشأنه ما دام لم يستمع إلى نصحها منذ البداية، لكنها كانت قد سلمت له في الخفاء بأن المرء لا يستطيع أن يهرب من الله إلى بنغازي وكانت قد تذكرت أنها لو كانت في مكانه لهربت إلى بنغازي على أي حال..

ثم نظر إليها الزنجي من فوق كتفه وقال ضاحكاً:

ـ أنا فقي البحر وأنا أقول لك إن الله لا يقف ضدنا أو ضدكم، أعني أنت لا تعرفين ذلك، ولكنه عين الحق، إن فقي البر يقاتل فقي البحر، هذا كل ما في الأمر ويحضر أبناء عمه معه.

وبعد ذلك نهض واقفاً وجلس بجانبها على عتبة المطبخ لكي يسند ظهره على الجدار والتزم الصمت.. وقد جلسا معاً طوال الوقت جنباً إلى جنب والتزما الصمت.. وقد سمعا معاً شجارهما المر من الداخل، وانطلقا معاً مثل موجتين صاخبتين تتطاردان على بعد مذهل من الشاطىء دون أن تلحق إحداهما بالأخرى.. كان

البحر يربط بينهما من أسفل، ولكن رأسيهما لم يلتقيا أبداً، ثم لاح الشاطىء على حين غرة عند باب البيت، وسمعا معاً في وقت واحد طرقات العصي فوق الباب المشبع بماء المطر، وتبادلا نظرة صغيرة حافلة بالأصوات.. كانا قد تكسرا في لقائهما المفاجىء على الشاطىء العدائي..

ثم نهض الزنجي والتقط مجدافه وخرج مطرق الرأس.

كان يخرج وحده في صحبة المجداف، وكان الله ينتظره في الخارج مع خادمه وأبناء عمه المسلحين بالعصي والمرابطين وسلاحف البحر والعاصفة والصبي الميت والأسياد.. وكان ذلك حقيقة إلهية واقعة..

وهبطت المرأة الزنجية من معقلها الشاهق القديم، واجتازت عتبة السقيفة، ووضعت عينها على ثقب المفتاح لكي ترى ما يحدث، لكنها لم يكن بوسعها أن ترى ما يفعله الله من ثقب المفتاح، وكان عليها أن تترك معقلها القديم كله، وتفتح الباب على مصراعيه وتخرج إلى شارع الناس الغرباء وقد فعلت ذلك دون أن تدري، وأطلت بأذنيها المهدلتين، ورأت أحداً ما يشد زوجها من الوراء ورأت رجلاً آخر يدك ضلوعه بعصاه.. لقد كانت معركة حقيقية من جميع الوجوه.. وكانت قد بدأت دون أن تنتظرها ثم أطلعت المرأة الزنجية رأسها كله وقالت شيئاً ما بصوت عال، وبعد ذلك رأت زوجها يحرر نفسه ويمد ذراعيه في الهواء محاولاً أن يصل إلى مجدافه الملقى في وسط الشارع تحت وابل من ضربات العصي، ثم رأت دماه.. ورأته يلتقط مجدافه محني الظهر ويرسله عبر ذرات الغبار الكثيف مثل عاصفة مختنقة خالية من الأصوات فيما كان أحد ما يسلط عصاه في ظهره من الخلف.. وبعد ذلك

ركع الزنجي على ركبتيه ونظر إليها صامتاً ثم مدَّ ذراعه وأمسك الفقي من عنقه ودار خلفه مستعيداً توازنه دون أن يفقد مجدافه، وعندما أرسله في اللحظة التالية كان الفقي يطير وحده على ارتفاع شاهق، وكان أحد ما يصرخ بأعلى صوته:

ـ لا تتركه ينهض.. اضرب العبد على رأسه.

وضربه أحد ما على رأسه. وصرخت المرأة الزنجية عند فتحة الباب فيما كانت الدماء الوهمية تغطي عينيها بدل عصابتها القديمة.

وعاد الفقي حاملاً حجراً بين يديه ودفنه بصوت مكتوم في ذرات الغبار، واندفع أحد أبناء عمه وراءه رافعاً عصاه ثم فتح عينيه مدهوشاً عندما لمس المجداف عنقه ووقف معلقاً في الهواء.. وعاد بعد ذلك يبحث عن الأرض. وقد وجدها بعد أطول رحلة محيرة في حياته.. وفجأة تعلق أحد ما بظهر الزنجي وطفق يعصره بين ذراعيه وسقط المجداف على الأرض وتدحرج مرتين على أرض الشارع، وفغرت امرأته فمها عند فتحة الباب وبدأت تشاركه آلام ظهره.. كانت تعرف ما يعانيه بين ذراعي ذلك الرجل، وكانت قد رأت ركبتيه تنحنيان في الخفاء، ثم وقفت خارج العتبة وقالت بحيرة:

ـ ماذا فعل لكم.. أعني ماذا فعل لأي منكم؟ وأدركت على الفور أنها تقول ذلك لله والفقي وأبناء عمه والمرابطين وسلاحف البحر والعاصفة والصبي الميت والأسياد، وشرعت تصرخ بأعلى صوتها..

وإذ ذاك فتح الزنجي عينيه ورآها تلتقط المجداف من وسط الشارع وتسلطه في رأس الفقي.. ثم رأى الفقي يستدير مترنحاً

ويشده منها فيما كان يركلها بقدمه من أسفل، ومدَّ ذراعه غير المكسور حاملاً خصمه فوق كتفه وخطف المجداف منهما معاً وشرع يلوّح به على غير هدى مطلقاً صراخاً مفجعاً حتى وصل بظهره إلى الجدار المقابل وأزاح خصمه جانباً وانطلق يحصد حوله بمجدافه مغمّض العينين، ولم يفتح عينيه ولم يتوقف عن الصراخ إلى أن سمع أحداً ما يقول لامرأته:

- عودي إلى بيتك.. ماذا دهاك يا امرأة؟.. إن زوجك بخير.

إذ ذاك عرف أن معركته الصغيرة قد انتهت، وفتح عينيه طائعاً وراء خيوط الدم ورأى امرأته تحمل حربونه في يدها وتقف في وسط الشارع.. واتكأ على مجدافه وطفق يراقبها مقطباً حاجبيه.. كان الحربون سلاحاً حقيقياً قاتلاً وكانت تحمله في يدها..

ثم رآها تبحث عنه بعينيها في الزحام.. ورفع قامته معتمداً على مجدافه ومال بعنقه إلى الوراء لكي تراه في أحسن حالاته.. ولمح بعد ذلك عينيها تصلانه عبر ذرات الغبار المشبعة بحمرة دماه مثل منارتين مألوفتين على طرفي المدخل المفاجىء.. وألصق ظهره بالجدار ونظر إليهما مرة أخرى مدققاً فيما كان الدوار المتناهي الألفة الذي يشبه النعاس يأخذ طريقه إلى صدره.. كانتا منارتين حقيقيتين على أي حال..

ورأته امرأته يغلق عينيه ملتصقاً بالجدار.. ثم رأت مجدافه يترنح خفية تحت وطأة ثقله، ومدت يدها من وسط الشارع مزمعة أن تسنده قبل أن يسقط على الأرض، لكنها لم يكن بوسعها أن تصل إليه.. فقد كان بعيداً عنها بعداً كافياً، وكان بعيداً عن الأرض أيضاً، وبعيداً عن جميع الأيدي والناس والأصوات، وقد أبحر في اتجاه منارتيه فوق المياه الزيتية المفعمة بروائح الشطئان، ومضى يبحر

بلا انقطاع.

واعترض أحد ما طريق المرأة الزنجية وقال لها مرة أخرى:

- عودي إلى بيتك.. ماذا دهاك يا امرأة؟ لقد قلنا لك إن زوجك بخير..

ثم رأى عينيها معلقتين بالجدار والتفت خلفه مسلوب الإرادة وامحى مرة واحدة في لحظة الرعب البدائي الذي نهض فجأة عبر الصراخ والأصوات المكتومة والرجال وانداح في الصمت مثل موجة مسحورة مقززة. كان الزنجي يخوض بيده على غير هدى مغمض العينين..

وكان قد أبحر بقاربه فوق المياه الزيتية المفعمة بروائح الشطئان، وتذكر فجأة أنه يبحث عن ذكر السلحفاة، وأن امرأته قد أخذت حربونه ومد لها يده في لحظة الرعب البدائي الذي نهض وراء الصراخ والأصوات المكتومة والرجال مثل موجة مسحورة مقززة، وكان يعرف أن عينيه مفتوحتان.. ثم بلغ الدوار مداه.. وأفلت مجدافه من قبضته وغاص في المياه الزيتية المفعمة بروائح الشطئان متخذاً طريقه إلى القاع، وراقبه الزنجي غير مصدق، ثم اكتشف أنه يغوص معه جنباً إلى جنب، واتكأ عليه بثقله لكي يغرسه واقفاً في الرمال البيضاء، وبعد ذلك جره وراءه ومشى فوق القاع في اتجاه الشاطىء، واستدارت خلفه رؤوس الرجال والنساء اللاتي أطللن من بيوتهن لمراقبة الشجار، واستدار الفقي أيضاً،ورأوه يجر مجدافه ببطء وينطلق مترنحاً في اتجاه بيته، ورأوه ينحني إلى الأمام مائلاً برأسه على كتفه الأيسر كأنه يقاوم مجرى الريح.. كان التيار السفلي عنيفاً على القاع..

ثم استعاد الشارع الترابي لسانه..

وتكلم كل شيء في لحظة واحدة، وتكلم الفقي وأبناء عمه والصيادون الذين وصلوا مخمورين من المقهى لمشاهدة العراك، وتكلمت المرأة الزنجية أيضاً دون أن تسمع ما تقوله كانت قد وقفت على حافة هذا العالم وأنصتت إليه طوال حياتها، لكنها كانت تقف دائماً على الحافة، وكانت تراه من معقلها المغلق بعيداً وشاهقاً مثل الله نفسه.. أما الآن فقد اكتشفت أن الله والعالم يقفان معاً جنباً إلى جنب على باب البيت وأنهما وقفا هناك على الدوام، وأن رحلتها الهائلة لم تستغرق في الواقع سوى لحظة صغيرة خاطفة عبر العتمة الحجرية.. وكانت تتكلم بلا انقطاع لكي لا يفلت العالم من بين يديها.

ثم رأت الفقي يشق طريقه إليها في الزحام، وانتصبت أمامه في وسط عالمه المسحور وتكلمت معه دون أن تسمع ما تقوله، ورأته بعد ذلك يشير بأصبعه إلى السماء، ولمحت الله الذي سمعت عنه طوال حياتها يتوهج فوق طرف اصبعه على بعد خطوة واحدة منها، وفغرت فمها غير مصدقة.. ولمسته برأس الحربون.. لقد فعلت ذلك دون أن تدري، لكن الفقي غضب منها وصفعها على وجهها، وكان الحربون قد سلخ اصبعه..

ثم حملها أحد ما بين يديه وألقاها على أرض السقيفة وصفق الباب وراءه حتى اهتز المصباح القديم المعلق في السقف وسقط عند قدميها وتهشمت زجاجته.. لقد كان كل شيء حقيقة واقعة، وكانت قد رأت ذلك بنفسها، وكان المصباح القديم كل خسائرها..

وسمع الزنجي صوت الباب وفتح عينه ببطء ورأى امرأته تسبح واجمة في اتجاهه.. وقال لها مغالباً نعاسه المتناهي الألفة:

- أين جردل البئر؟.. لقد بحثت عنه دون جدوى، ما الذي دعاك إلى الخروج أمام الناس؟..

وكان الجردل بين قدميه، وقد التقطته امرأته واجمة وملأته من البئر ثم وقفت تراقبه فيما كان يولج رأسه بداخله وملأته له بعد ذلك مرة أخرى ورأت جراحه البيضاء العميقة الغور.. وشرعت تبكي بصوت عال..

وقال لها الزنجي من حافة الجردل:

- اذهبي من هنا.. ما الذي يدعوك إلى العويل؟.. اذهبي من هنا..

ثم أمال رأسه ونظر إليها عبر خيوط الماء الشاحبة الحمرة وتعلقت عيناه بها في نظرة بسيطة خالية من العمق، فقد أدرك فجأة أنها لم تعد تملك مكاناً تذهب إليه، وأشاح بوجهه جانباً والتزم الصمت..

ثم التزم الصمت بقية النهار..

وانكفأ على وجهه فوق طرف الوسادة المزينة بهلال فضي والتزم الصمت.. وعندما جاءت امرأته لكي تستميله إلى الحديث معها بفنجان القهوة شربه في جرعتين ملتزماً صمته المقلق وعاد يتظاهر بالرغبة في النوم دون أن ينظر إليها.. وعندما أحضر الصبي حربونه من الشارع ووقف عند رأسه وانطلق يروي له ما قاله الفقي والصيادون اكتفى بأن هز له كتفيه والتزم الصمت.. وعندما أخبره الصبي مقلداً لهجة كبار الصيادين أن السلحفاة أنثى وأنه ضربها على رأسها بالمجداف، أبعده بيده وتظاهر بالرغبة في النوم.

كان يحس بالخوف..

لقد بدا ذلك عندما أمال رأسه ونظر إلى امرأته عبر خيوط الماء الشاحبة الحمرة، وقد بدا فجأة في لحظة خاطفة واحدة، لكنه تعاظم بسرعة ووصل مداه في اللحظة التالية. وكان قد أدرك إذ ذاك أن امرأته لم تعد تملك مكاناً تذهب إليه حقاً، وأن شيئاً ما قد علقها في عنقه على حين غرة، وأن ذلك قد حدث بيد الله نفسه لأن أحداً غيره لم يكن بوسعه أن يصيبه بدقة إلى هذا الحد.. فقد أخطأ الفقي الطريق، وأحضر أبناء عمه وسلطوا عصيهم في ظهره على عادة الناس عندما يشعرون بالغضب.. وكان ذلك ما يفعله الناس وكان ظهره لا يعوقه عن الخروج للقاء الله في الخليج ما دام يعرف أنه يخرج وحده، وأن المعركة تخصه وحده، وأن أمر النصر أو الهزيمة واحد على حد سواء.. لكن الشيء الذي علق له امرأته في عنقه كان يعرف الطريق.. وكان يعمل مثل الله وقد رأى سره من الداخل ورأى أن خروجه إلى الخليج يبدو له في الخفاء مجرد مقامرة نهائية بمحصول الربح وحده وأن أمر السلحفاة لن يهمه حقاً ما دام قادراً على تقبل النصر أو الهزيمة على حد سواء، وعلق له امرأته في عنقه لكي يفسد ذلك بالضبط.. لقد بات عليه الآن أن يقامر برأس لا يخصه، وبات عليه أن يعرف بوضوح أنه سيقامر هذه المرة لكي يكسب فقط.

وكان الزنجي يرى بعيني رأسه أن ذلك في الواقع ليس قماراً على الإطلاق، وأنه لا يستطيع أن يخرج إلى الخليج بدون توقع للخسارة.. لقد كان بوسعه أن يضع حربونه وذراعه غير المكسور وظهره المضحك أيضاً ضد ذلك السلحفاة ويطارده في الخليج ويرى بنفسه ماذا سيحدث، وكان بوسعه أن يتوقع في الخفاء أن حربونه سيفعل هذه المرة ما تعوّد أن يفعله طوال حياته وينال فرصته في الوقت المناسب، لكن السلحفاة أيضاً كان يملك فرصته بدوره،

ويملك المياه الضحلة والأجراف وظهره العظمي الصلد.. وكان الزنجي لا يريد أن يتجاهل ذلك..

لم يكن خائفاً من السلحفاة..

ولم يكن قد قرر بعد أنه سلحفاة ذكر أو أنثى، وأنه جاء في أعقابه أو جرفه التيار خلال العاصفة.. ولكنه كان يعرف أن الفقي قرر ذلك، وقرره الصيادون وسكان القرية، وأن امرأته أيضاً قررته في الخفاء ثم اضطرت إلى أن تقف بجانبه لأنها لم تكن تملك مكاناً آخر تذهب إليه.. وكان ذلك يشعره بالخوف..

وعندما مال على جنبه في طرف الوسادة المزينة بهلال فضي ورأى الشمس تزحف ببطء على رأس الجدار، أغمض عينيه بيأس وأولاها ظهره لكي لا يشهد اقتراب المساء، ثم اعتراه الغضب وقال قاصداً امرأته:

ـ ماذا يهمك من أمرها.. إنها لم تقف إلى جانب أحد على الإطلاق.. لقد أثارها الشجار.. هذا كل ما في الأمر، وسوف تعود غداً لكي تؤنبك على صيد السلاحف..

لكن ذلك لم يكن كافياً.. فقد بدا من الواضح أنه ما يزال يحتاج إلى أن يسقط الخسارة من حسابه إذا قرر أن يخرج إلى الخليج، وكان ذلك حقيقة مسطحة.

وفتح الزنجي إحدى عينيه وتذكر الشجار.. لقد لجأ إلى هذه الحيلة لكي ينسى موقفه الحرج، وتذكر مجدافه وصراخ الفقي عندما أمسكه من عنقه، لكن الشجار لم يكن قد جرى في صالحه، وكان عليه أن ينساه في الحال.

وفجأة نهض الزنجي واقفاً وخرج إلى الفناء ورأى امرأته تلزم

مكانها القديم على عتبة المطبخ ورأى الصبي يجلس بجانبها، ونظر إليهما مدققاً النظر دون أن يدري، ثم قال للصبي:

ـ أنا أحتاج إلى الشبكة القديمة.. إنها معلقة في السقيفة.. هل تستطيع أن تحضرها؟..

وبعد ذلك قال لامرأته ضاحكاً:

ـ أين وضعت الحربون؟.. أعني إذا كنت لا تحتاجين إليه؟..

وتكلمت امرأته والصبي في وقت واحد.. ثم تبادلا النظر وصمتا معاً.. لقد فاجأهما سلوكه الطارىء، وكانا يملكان كثيراً مما يريدان أن يقولاه له، ثم صمتت امرأته وتكلم الصبي عن السلحفاة وقاطعته على الفور وتكلمت عن الفقي وقاطعها بدوره وأعلن مرة واحدة أن الفقي يزمع أن يقضي الليل في الخليج.. وإذ ذاك ساد الصمت..

ودار الزنجي على أعقابه وشرع يبحث عن حربونه في الفناء فيما علقت امرأته عينيها الواسعتين بالصبي وسألته مدهوشة:

ـ وما الذي يزمع أن يفعله في الخليج؟.. أعني أين سمعت ذلك؟..

لكن الصبي لم يهتم بها، فقد كان هذا الخبر يخص الرجال وحدهم.

وعندما ذهب لإحضار الشبكة توقف وراء عتبة السقيفة وقال للزنجي بصوت عال:

ـ لقد أخبرني بنفسه أنه سيقضي الليلة في الخليج.. أعني قال ذلك في المقهى، وقد أخبر الصيادين أن السلحفاة لن يبتعد عن القرية إلا إذا قرأ عليه.. لماذا تحتاج إلى الشبكة؟..

وكانت الشبكة وحدها تشغل الصبي، وكان قد خطر له أن الزنجي يزمع أن يطرحها في الخليج للحصول على اطعامه من أسماك الشلبة التي دخلت خلال العاصفة، وأن أمر السلحفاة لم يعد يهمه، وكان لا يعرف لماذا يخذله على هذا النحو..

وزحفت الشمس عند نهاية الجدار وانثالت مواشير الضوء الشاحبة الحمرة في لحظة خاطفة عبر زرقة المساء.. ورآها الزنجي بطرف عينه فيما كان يختبر حربونه في وسط الفناء، ثم وضع مجدافيه فوق كتفه وحمل شبكته وانطلق في اتجاه الخليج دون أن يقول شيئاً. كان قد عاد إلى صمته القديم..

ورآه الصيادون الذين وقفوا يتحدثون فوق الساحة الرملية ورآه الفقي وصاحب المقهى والنساء واللائي أطللن من بيوتهن للحديث عن ظهور ذكر السلحفاة، ورآه البرغثي الذي وقف يتبادل الحديث مع المرأة الرومية على حافة الطريق العام وقال لها بلغته الإيطالية السيئة:

ـ ألم أخبرك بذلك؟ السلاحف خلاص.. والعبد خلاص.. إنه لا يحضر شبكته لكي يمسك ذكر السلحفاة من ذيله..

وكانت شبكة الزنجي قد خدعت أفضل الصيادين.. وكان قد أحضرها معه لكي يفعل ذلك بالضبط، فقد أدرك على الفور أن معركته القادمة ليست معدة للفرجة، وإنه سيمنح ذلك السلحفاة سلاحاً لا يستحقه إذا قبل أن يطارده أمام سكان القرية.. لقد كان عليه أن يقابله في الخفاء إذا كان قد جاء لقتاله حقاً، وكان عليه أن يقاتل بأسلحته الحقيقية وحدها.. لكن الزنجي لم يحضر شبكته لتحقيق هذه الخدعة الصغيرة فقط.. لقد أحضرها لكي يغلق بها مدخل الخليج..

وعندما اجتاز منطقة الصخور الناتئة على الشاطىء وسحب قاربه إلى جانبه، كان خوفه قد فارقه إلى حد ما، وكانت خطته الجديدة تمده بكثير من العون، ثم لاحظ فجأة أن قاربه وحده هو الذي بقي طافياً في الخليج وأن بقية الصيادين ملأوا قواربهم بالماء خوفاً من العاصفة وقال لهم بصوت مسموع:

ـ الخوف عدو الصياد وعدو قاربه.. أعني الخوف وليس العاصفة.

ثم دفع قاربه في الماء وتذكر أن العاصفة في الواقع أسوأ أعداء الصيادين وقال ببطء:

ـ دعنا من ذلك.. ليس ثمة عاصفة هنا.

كان قد رفع مرساته الخلفية ودفع بمؤخرة القارب إلى محاذاة مدخل الخليج، وكان قد فعل ذلك لكي يراقب المدخل مؤقتاً دون أن يثير شكوك أحد، ثم أدار ظهره للقرية وشرع ينزح ماء المطر من قاربه ويراقب المياه البيضاء بين حافتي الصخور الناتئة متظاهراً بالهدوء.. لكنه لم يكن هادئاً من الداخل، وكان يعرف أن السلحفاة قد يلوح في المياه البيضاء في أية لحظة ويتخذ طريقه إلى عرض البحر مهتدياً إلى المدخل بالتيار السفلي الذي يسبق تغير الريح في المساء، وكان يعرف أن ذلك أيضاً يدخل في نطاق الخسارة، وأنه سيضطر إلى منعه من الهرب على مرأى من جميع الصيادين.. وكانت خطته لا تحتمل هذه المغامرة..

لقد وضعها ـ كما وضع الله خططه تجاهه ـ لكي تحدث في الخفاء.

وقرر أن يلزم مكانه كما يفعل الله أيضاً، ويضع حربونه بجانبه، ويسد مدخل الخليج بجزء من شبكته بعد أن يشدها بمرساتيه ثم

ينتظر السلحفاة لكي يقلبه على ظهره عند منفذ النجاة بالضبط.. كان قد تعلم ذلك مما حدث له عندما جاء لانتظار رئيس جمعية أصحاب القوارب وراء جدار سوق السمك.

وكان يعرف أن السلحفاة سيرتكب أيضاً نفس الخطأ وسوف يجد مدخل الخليج ويندفع في اتجاهه معتقداً أنه نجا من الخطر، وكان الزنجي يزمع أن ينتظره هناك ويتركه يخوض في منطقة المياه الضحلة، ويتركه يعتقد أنه نجا من الخطر، ويتبعه فوق السطح في الخفاء، ثم يقلبه على ظهره عندما يصل إلى المياه العميقة. كان يقلد الله بقدر الإمكان.

وكان ظهره لم يعد يعوقه في شيء، ولم يعد يعوقه ذراعه المكسور أو الأجراف أو المياه الضحلة أو خوفه أيضاً.. لقد كان يختار المكان المناسب للقتال، وكان يجلس في قاربه وسط منطقة المياه العميقة ويسند ظهره على الدفة، وينتظر عدوه بشروطه الخاصة التي تلائمه بالضبط، ولم يكن ثمة ما يدعوه إلى الخوف.. لقد ترك ذلك للسلحفاة وحده..

وفي لحظة ما أحس الزنجي بالامتنان تجاه امرأته، لقد ومض ذلك في داخله عبر لحظة خاطفة واحدة، لكنه ومض حقاً رغم إحساسه بأنها ما تزال معلقة في عنقه بيد خفية مريبة. فقد ساعده ذلك على أي حال لكي يهجر خطته القديمة المتسمة بالطيش، ويهجر رغبته البذيئة في إذلال السلحفاة على مرأى من سكان القرية، ويستعيد اتزانه في الوقت المناسب. وكان قد بدأ يرى أن تغيير خطته لم يكلفه شيئاً في الواقع سوى قضاء الليل في الخليج، وأن مطاردة السلحفاة على مرأى من سكان القرية والفقي لم تكن قط سوى خطة صبيانية فرضها على نفسه دون ثمة مبرر.. وكان قد اكتشف

لتوه أن الشيء الذي علق امرأته في عنقه جعله أيضاً غير قابل للخسارة.

وإذ ذاك أدار الزنجي عنقه في اتجاه القرية وأدلى شبكته في الماء، ثم رأى الشمس الغاربة وقال لها ضاحكاً:

ـ هل رأيت الخادم؟.. لقد كانت تقاتل بالحربون في وسط الشارع، أعني هكذا أمام الناس، وأنا أقول أن أذنيها كانتا منتصبتين.

وانسابت شبكته مع التيار السفلي الذي يسبق تغير الريح في المساء، ورآها بطرف عينه تتجه إلى المدخل مباشرة ورأى مرساته التي تركها معلقة في وسط المياه تحجز طرفها بجانب الجرف الناتىء، وجدف بقاربه قليلاً في اتجاه الحاجز الصخري لكي يولج المرساة تحت الجرف ثم دار متباطئاً، وانطلق إلى وسط الخليج.. كانت شبكته تمضي وراءه تحت سطح الماء، وكان المدخل قد أغلق في وجه السلحفاة إلى الأبد.. وبعد ذلك رفع الزنجي طرف شبكته الآخر وترك الصيادين يرون أنه يزمع أن يطوق منطقة الأعشاب القائمة في وسط الخليج، وأنه يبحث عن أسماك الشلبة لكي يبيعها بمثابة اطعام، وأنه سيعود عند العشاء إلى بيته لكي يستيقظ مبكراً ويرفع شبكته من طريق القوارب.. كان ذلك ما يفعله جميع الصيادين وكان من الواضح أن الزنجي لم يعد في وسعه أن يطارد السلحفاة في الظلام.. وقد سرت هذه الحقيقة أول الأمر بطريقة مخيبة للأمل بين مجموعة الرجال الذين وقفوا فوق الساحة الرملية مترقبين أن يشهدوا معركة حقيقية أخرى للمرة الثالثة ذلك النهار، لكنهم لم يلبثوا أن وجدوا حاجتهم من العزاء في العودة للحديث عن المعارك السابقة، واكتشفوا على الفور أنهم يستطيعون أن يفعلوا

ذلك بطريقة أفضل في المقهى، وأداروا ظهورهم للزنجي واحداً بعد الآخر مستشعرين تجاهه رغبة طارئة في المغفرة.. فيما كان النجم الشمالي الناصح البياض يطل برأسه وراء النتوء الجبلي مباشرة..

ثم تحدث الصيادون في المقهى حتى صلاة العشاء، وتحدث معهم الفقي أيضاً، وتبادلوا قصص السلاحف المريبة التي ظهرت في الخليج، وذكروا حادثة الصبي عند الجزيرة محاذرين أن يثيروا غضب والده الذي جلس معهم بدوره، ثم ذهبوا لصلاة العشاء. وتذكروا قصة إضافية أخرى. وتناقلوها بالتفصيل حتى أغلق المقهى أبوابه.. وبعد ذلك تفرقوا في العتمة ومضى اثنان منهم في صحبة الفقي على الطريق العام ورأوا قارب الزنجي خالياً عند المدخل.. ثم لوّح لهم الفقي بيده مودعاً وانطلق وحده في اتجاه الطرف الغربي للخليج.. كان يعرف أن الطريق لم يعد يحتمل أحداً سواه.. لكن الزنجي كان في قاربه.. وكان يستلقي مسترخياً فوق العارضتين، ويسند ظهره بمجدافه، وينتظر سلحفاته في المياه العميقة مفرغاً من الخوف أو الإثارة. وقد تذكر الصبي الميت، وتذكر أنه جاء في أعقابه وقتل سمك القرش، وأنه سمع صوته عند حافة الجزيرة، ورآه كل ليلة في المنام، وتذكر العاصفة التي نهضت على حين غرة وأحضرت له السلحفاة والفقي وأبناء عمه، وتذكر كل شيء بالتفصيل لكنه لم يحس بالخوف أو الإثارة.. لقد بدا ذلك كله حقيقة واقعة إلى حد كاف.. وبدا الهيأ بطريقة ما، لكن وجوده في الخليج كان حقيقة واقعة مسطحة، وكان الهيأ أيضاً. لقد جاء في الميعاد كعادته، وجاء للدفاع عن فرنكاته الثلاثة ولم يكن يملك ثمة مكاناً آخر يذهب إليه، ولم يكن يريد أن يذهب إلى مكان آخر على أي حال.. لقد تعود أن يمشي في اتجاه أنفه وتعوّد أن يضع الله في جانبه، أو لا يضعه في جانب أحد ويواصل المشي خالي البال

حتى يدفعه شيء ما ويتركه يسقط على وجهه.. وكان الله وحده يستطيع أن يفعل ذلك، وكان يستطيع أن يفعله الآن أيضاً، أما السلحفاة فلم يكن يملك فرصة واحدة..

وعند منتصف الليل خلع الفقي نعليه عند طرف الوادي الممتد بحذاء الحاجز الغربي.. وصلى لله ركعتين، ثم بقي جاثياً على ركبتيه وقرأ سورة يونس الذي نجّاه الله من الموت والظلام في بطن الحوت، وأنصتت إليه الصخور والأمواج والنوارس، وأنصت إليه البحر العظيم الموغل في القدم الذي شهد انقاذ يونس من الموت والظلام في بطن الحوت..

ثم رفع الفقي يديه إلى السماء وقرأ الفاتحة حتى آخر الليل، ورأى النجم الشمالي الناصع البياض يومىء له من سمواته الشاهقة، ورأى الجبل يخشع صامتاً، وأحس بكلمات الله المضيئة تأخذ طريقها على حافة النسيم الخريفي متضوعة بالعطر وغمرته روائح السماء ودفن وجهه بين يديه مستشعراً عمق العالم من حوله.. كان كل شيء قد أضاء فجأة ولكن الزنجي بقي معتماً..

ثم قبل يديه بعد الفاتحة واستدار مطرق الرأس وحمل نعليه تحت إبطه وانطلق مغسولاً ومضاءً من الداخل في قلب الليل المتناهي العمق... وبعد ذلك مشى فوق الصخرة العالية المحاذية لشاطىء الخليج الغربي وسمع شيئاً يتحرك في العتمة ونظر إلى الشريط الرملي تحت قدميه ورأى السلحفاة تستدير على حين غرة في ضوء النجوم الشاحبة وتندفع مذعورة في اتجاه المياه.. كانت قد جاءت لكي تنصت إليه، وتضع بيضها على الشاطىء..

وفي لحظة ما بقي الفقي معلقاً في العتمة على بعد شاهق من الأرض، ثم هبط ببطء ومدّ عنقه إلى الأمام ورأى بيض السلحفاة

في الحفرة الرملية الضئيلة العمق.. ورأى دوائر الماء التي خلفتها وراءها تنداح في صمت بين قدميه، ثم سقط نعله من تحت إبطه، وفتح فمه دون أن يدري، وقال بصوت خافت:

ـ أيها العاهرة... بسم الله الرحمن الرحيم..

وبعد ذلك هبط مذهولاً من صخرته العالية ولمس بيض السلحفاة بأصبعه.. كان بيضاً حقيقياً منتناً، وكان يملأ الحفرة الرملية، وكان النسيم الخريفي يحمل رائحته إلى أنفه وقد بصق الفقي فوقه أول الأمر، ثم غطاه بالرمال في غمرة دهشته.. وتذكر بعد ذلك أن كلاب القرية سوف تجده في الصباح، وأزاح الرمل بيديه ووقف معلقاً في الهواء.. كان يحس أن أحداً ما قد طعنه من الخلف..

ثم استعاد صفاء ذهنه واكتشف فجأة أن أحداً ما قد طعنه من الخلف حقاً، وأنه يريد أن يحتمل الطعنة في الخفاء وفرش كوفية الحجاج على الرمل ووضع بيض السلحفاة فوقها وحملها من أطرافها بحذر إلى أن وصل إلى حافة الحاجز الصخري المطلة على البحر المفتوح ودلقها مرة واحدة. وكان يطعم بضع مئات من السلاحف للأسماك..

ثم استعاد هدوءه أيضاً.. وغسل كوفية الحجاج في مياه البحر وبحث عن نعليه فوق الصخرة العالية ووضعهما تحت إبطه وانطلق مطرق الرأس في اتجاه الطريق العام.. كان قد فعل كل ما في وسعه لكي يحتمل الطعنة الخفية في صمت.. وكان يترك الباقي على الله، وقد عرف أنه لن يخذله، وعرف أنه سيفعل الصواب، ورفع عينيه إلى السماء ورأى النجم الشمالي الناصع البياض يومىء له من بعيد..

لقد قال له إن الله بدوره سيهدي السلحفاة إلى مدخل الخليج..



من مكة إلى هنا

الصادق النيهوم

عندما اجتاز الزنجي الرف الصخري الممتد على مدخل الخليج خلع خذاءه وتركه يتدلى على كتفه ثم انطلق يخوض في المياه الضحلة حتى وصل إلى قاربه المربوط وراء المدخل مباشرة ووضع جرابه ومجدافيه وقال فجأة :

– الفقهاء اعداء الصيادين ، انني استغفر الله اذا كان ذلك ذنباً حقيقياً . ولكن الفقي يقول لك أن سلاحف البحر حوريات مسحورة ، لا بد أنه يناصبك العداء . أجل أنا عبد جاهل لا يجوز أن يخوض في أقوال العلماء ، لكن السلحفاة ليست حورية مسحورة انما مجرد «فكرونة» كبيرة الحجم وقبيحة إلى حد لا يطاق ، وقد قتلت منها بنفسي ما يربو على المائة دون أن يسخطني الله إلى حجر .



التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص.ب. 113/5752 ر.ب. 2070 1103 - بيروت - لبنان
Email: arabdiffusion@hotmail.com